الفصل السادس

الإمهال

obeikandl.com

الفصل السادس

الإمهال

مدخل:

إذا كنا قد تحدثنا فى الفصل السابق عن صبر العباد وحلمهم فحرى بنا أن نتحدث عن الحلم والصبر كصفتين من صفات ربنا–ﷻ–فمن أسمائه تعالى الحسنى الحليم والصبور ، ومن مسببات حلم الله وصبره الإمهال ، والإمهال فى حق العباد إما أن يكون نعمة ، وإما أن يكون نقمة ... فهو نعمة لمن مآله إلى التوبة ، قال تعالى: "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولـئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما"[1] ...

ونقمة على من تمرد وتمادى فى غيه وعصيانه، قال تعالى: :"**والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون {} وأملي لهم إن كيدي متين**"[2].

ولذا فقد قسمت هذا الفصل إلى بحثين :

البحث الأول: الإمهال من نعم الله على عباده .

البحث الثانى: الإمهال نقمة على الكافرين .

---

[1] سورة النساء ، الآية: ١٧ .
[2] سورة الأعراف، الآيتان ١٨٢-١٨٣ .

المبحث الأول

الإمهال من نعم الله على عباده

نعم الله-ﷻ-على عباده لا تحصى ولا تعد ؛ قال تعالى في محكم تنزيله :"وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار"[1] وقال أيضا:"وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم"[2].

فهي نعم لا يمكن للمرء إحصاؤها أوعدها ، قال الإمام السعدي-رحمه الله-:"فنعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد ومما لا يعرفون ، وما يدفع عنهم من النقم ، فأكثر من أن تحصى"[3].

ومن أبرز تلك النعم التي أنعم بها المنعم على مخلوقاته إمهاله لهم ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة ، إذا ما أذنبوا ذنبا ، أو هموا بخطيئة ، فهو-ﷻ-حليم بعباده ، صبور عليهم ، يتمهل ولا يتعجل ، يتجاوز عن الزلات ويعفو عن السيئات ، يمهل الطائعين ليزدادوا في الطاعة والثواب ، ويمهل العاصين لعلهم يرجعون إلى الطاعة والصواب ، ولو عجل الجزاء ما نجا أحد من العقاب ، ولكنه الحليم ذو الصفح والأناة ، استخلف الإنسان في أرضه ، واستبقاه إلى يوم موعود وأجل محدود ، وبحلمه أجل عقاب الكافرين ، وبفضله عجل ثواب المؤمنين ؛ ولذلك وسم الله نفسه بصفتي الحلم والصبر ، فهو الحليم الذي يشاهد معصية العصاة ، فلا يستفزه غضب ، ولا يعتريه غيظ ، الصبور الذي لا تحمله العجلة على المسارعة بالانتقام ، بل يضع الأمور في نصابها ، ويجعل لكل أمر وقتا معينا ، وأجلا محدودا .

لذلك كان حريا بالبحث أن يتناول من أسماء الله معنى الحليم والصبور.

---

[1] سورة إبراهيم ، الآية: ٣٤ .
[2] سورة النحل ، الآية: ١٨ .
[3] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

أولا : الحليـــم :

هو اسم من أسمائه-ﷻ-معناه كما قال العلماء : "هو الذي يشاهد معصية العصاة ، ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ، ولا يعتريه غيظ ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش"[١]... وقيل : "هو الذي يمهل العصاة .. ويعفو عن الجناة .. في رحمة وأناة ، ويغفر لمن يتوب حتى آخر رمق في الحياة .. فيرفع عنهم العذاب .. وهو قادر على العذاب .. ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه .. ولولا أن الأحباب.. يحلو بينهم العتاب .. لأدخلهم الجنة بغير حساب"[٢]... وقيل :"هو الذي لا يستخفه عصيان العصاة ، ولا يستفزه الغضب على الطغاة ، ولكنه جعل لكل شئ مقدارا ينتهي إليه ، ومعنى ذلك: أنه الذي يغفر بعدما ستر ، ولا يسارع بالمؤاخذة ، ولا يعجل بالعقوبة ، يتجاوز عن الزلات ، ويعفو عن السيئات ، يمهل العاصي حتى يتوب ، ويترك الآبق حتى يئوب"[٣]... وقيل :"هو الذي يشهد معصية العصاة ، ويرى مخالفتهم لأوامره ونواهيه فلا يستفز ، ولا يعتريه غيظ ، ولا يحمل على المسارعة بالانتقام رغما من قوة الاقتدار ، بل يتلطف بمثوبة الاستغفار"[٤]... وقيل : "الحليم ذو الصفح والأناة ، الذي لا يحبس إنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم ، لكنه يرزق العاصي كما يرزق المطيع ، ذلك بأنه تعالى هو الصفوح مع القدرة ، المتأن الذي لا يعجل بالعقوبة"[٥].

وقد ورد سؤال على هذا الأخير وهو " كيف يتضمن الحلم الأناة ، وقد قال رسول الله-ﷺ- لأشج عبد القيس :"إن فيك لخصلتين يحبهما الله ، الحلم والأناة"[٦] فعددهما ؟."

والجواب: أن الأناة قد تكون مع عدم الحلم ، ولا يصح الحلم أبدا إلا مع الأناة ، والأناة ترك العجلة ، فقد تكون لعارض يعرض ، ولا يكون الحلم أبدا إلا مشتملا على الأناة فتأمله"[٧]. فبينهما عموم وخصوص فكل حليم متأن وليس كل متأن حليما.

---

(١) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى لأبى حامد الغزالي صـ ٩٤ ، دراسة وتحقيق ، محمد عثمان الحشت ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع .

(٢) أسماء الله الحسنى لتاج الدين نوفل صـ ١١٣ ، دار الأمين للنشر والتوزيع .

(٣) موسوعة القصص القرآني ، أسماء الله الحسنى ، للدكتور / حمزة النشرتى ، الشيخ / عبد الحفيظ فرغلى ، الدكتور / عبد الحميد مصطفى ، صـ ٢٥٧ ، المكتبة القيمة .

(٤) أسماء الله الحسنى ، الأصول القيمة والمعاني السلوكية فى الإسلام لعبد العظيم إبراهيم فرج صـ ١٧٢ ، ط الثانية ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

(٥) الأسماء الحسنى للدكتور / عز الدين الجمل صـ ١٥٦ ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ، الناشر ، دار الشواف للنشر والتوزيع .

(٦) سبق تخريجه .

(٧) الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى لأبى عبد الله القرطبى ، المجلد الأول صـ ٩٤ ، ٩٥ ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م ، ضبط النص وشرح مادته اللغوية ، أ. د / محمد حسن جبل ، وخرج أحاديثه وعلق عليه ، طارق أحمد محمد .

ويستخلص من هذه الأقوال السابقة في معنى الحليم والتي كانت كلها تدور في فلك واحد: أن الحليم هو الذي يمهل عباده للتوبة ، فلا يستخفه عصيان العصاة ، ولا يغضبه سفه السافهين ، بل يغفر ويتوب ، ويجعل كل شئ بمقدار فهو منته إليه ، فهو سبحانه "لا يعجل بالعقوبة على أحد مهما أمعن في العصيان أو بالغ في الاستهتار ، بل يمهله ويحلم عليه ، وفى الوقت نفسه يرزقه على الرغم من عصيانه ، وربما وسع له فى رزقه أو زاد له في جاهه أو مد له في عمره لعله يتوب ، فإذا أخذه بعد ذلك أخذه أخذ عزيز مقتدر"[1].

وقد ورد هذا المعنى في حديث قدسي رواه ابن عباس :"يا ابن آدم إن ذكرتني ذكرتك ، وإن نسيتني ذكرتك ، فإذا أطعتني فاذهب حيث شئت ، توالينى وأواليك ، وتصافيني وأصافيك ، وتعرض عنى وأنا مقبل عليك ، من أوصل إليك الغذاء وأنت جنين فى بطن أمك ؟ لم أزل أدبر فيك تدبيرا حتى أنفذت إرادتي فيك ، فلما أخرجتك إلى دار الدنيا أكثرت المعاصي ، ما هكذا جزاء من أحسن إليك"[2].

وروى عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله-ﷺ-يقول :" قال الله "يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى. يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالى. يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لقيتك بقرابها مغفرة"[3].

---

(1) موسوعة القصص القرآنى ، أسماء الله الحسنى للدكتور / حمزة النشرتى ، الشيخ / عبد الحفيظ فرغلى ، الدكتور / عبد الحميد مصطفى صـ ٢٦٠ ، ٢٦١ ، المكتبة القيمة .

(2) هذا الحديث من كتاب الأحاديث القدسية صـ ٢٢٢ ، جمع المحدث عبد الرءوف المناوى .

(3) أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب الدعوات عن سيدنا رسول الله -ﷺ- باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده ٥/٥٤٨ ، رقم الحديث (٣٥٤٠) ، وقال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

ولقد اختلف العلماء في وجه وصف الباري بالحلم على ثلاثة أقوال :

الأول : أنه عبارة عن نفى الطيش والسفه وكل ما يضاد الخلق المحمود الذي هو الصبر والثبات فى الأمور ، وعلى هذا يكون وصفا للذات[1]، لتقدس ذاته عن النقائص ، واستبدادها بالكمال الخالص.

الثاني : أنه من صفات الأفعال يجرى مجرى الإحسان والإفضال.

الثالث : "أنه إرادة تأخير العقوبة"[2].

والصواب أن القولين الآخرين ينصبان فى المفهوم الأول فالله-ﷻ-صفة ذاته الحلم والتي ظهرت آثارها في فعله ، فهو مريد لها ، قال الأقليشى[3]: "أما اتصاف الله-ﷻ-بالحلم بمعنى البراءة من الطيش فمعلوم بالبرهان المؤد إلى معرفة كمال الله تعالى ، وأما اتصافه بالحلم بمعنى تأخير العقوبة أو رفعها ، فأحدهما معلوم بالمشاهدة ، والثاني بالموارد النقلية وإجماع أهل الملة الحنيفية ، أما تأخير العقوبة فى الدنيا عن الكفرة والفجرة من أهل العصيان فمشاهد بالعيان ؛ لأنا نراهم يكفرون ويعصون وهم معافون في نعم الله يتقلبون ، وأما رفع العقوبة في الأخرى فلا يكون مرفوعا إلا عن بعض من استوجبها من عصاة الموحدين ، وأما الكفار فلا مدخل لهم في هذا القسم ، ولا لهم في الآخرة حظ من هذا الاسم وهذا معروف بقواطع الآثار ومجمع عليه عند أولى الاستبصار"[4].

ثانيا : الصبور

الصبور أيضا اسم من أسمائه-ﷻ-ومعناه يقرب من معنى الحليم ، ولقد قيل فى تعريفه بأنه: "هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه ، بل ينزل الأمور بقدر معلوم ، ويجريها على سنن محدودة ، لا يؤخرها على آجالها المقدرة تأخير متكاسل ولا يقدمها على أوقاتها

---

(1) صفة الذات هي التي تثبت لله الكمال وتنفى عنه النقائص كالقدم ينفى عن الله الحدوث ، والبقاء ينفى عنه الفناء ، والوجود ينفى عنه العدم ... وغيرها ، والمعنى أن الحلم من هذه الصفات تنفى عن الله العجلة والخفة والطيش .

(2) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى لأبى عبد الله القرطبى ٩٥/١ .

(3) أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمى الأقليشى أبو العباس ، عالم بالقراءات ، سكن قرطبة ورحل إلى الشرق ، له كتاب فى معانى القراءات ، توفى سنة ٤١٠هـ ١٠١٩م.(الأعلام ١٩٧/١ ، التاسعة ١٩٩٠م).

(4) الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى لأبى عبد الله القرطبى ، المجلد الأول صـ ٩٧.

تقديم مستعجل ، بل يودع كل شئ في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون كما ينبغي ، وكل ذلك من غير مقاساة ، داع على مضادة الإرادة"[١].

و"لنضرب مثلا نقرب هذا التعريف إلى العقل : فأنت تعلم أن الله تعالى قادر على خلق الإنسان بين الكاف والنون .. فهو القائل:" وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر"[٢].. والقائل :"وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب"[٣]. ولكنه–تعالى–أقام الدنيا على الأسباب .. فانظر مثلا إلى قوله تعالى عن خلق الإنسان:"**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين {} ثم جعلناه نطفة في قرار مكين {} ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**"[٤]. فانظر–هدانا الله وإياك–إلى خلق الإنسان ، فى البدء على ثلاث مراحل : من نطفة إلى علقة .. ثم من علقة إلى مضغة .. ثم من مضغة إلى هيكل عظمى غضروفي .. وكل مرحلة من تلك المراحل تستغرق أربعين يوما ، فيكون مجموعها أربعة أشهر ، ثم تنزل الروح من عالم الخلق ، في هذا المخلوق الجديد ، بعد إتمام تلك المراحل ، ليتم إنشاءه خلقا آخر .. ..ألم تر في هذا أن الله–تبارك وتعالى–هو بحق أحسن الخالقين ؟! وفى آية (الزمر) ما يزيد هذا الأمر إيضاحا ، في قوله تعالى: "**يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث**"[٥].. وقد سمي الله–تعالى–هذه المراحل الثلاث (من النطفة إلى العلقة ، ومن العلقة إلى المضغة ، ومن المضغة إلى العظام) سماها–سبحانه–"ظلمات" ؛ لأن النور لم ينزل فيها بعد ، فالروح هي النور ، تلك هي ظلمات الخلق المرحلية الثلاث ، وهكذا نرى الله–تعالى–صبورا ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدودة فلا يعجل بأمر قبل أوانه .. مع قدرته–تعالى–على الخلق قبل ارتداد الطرف"[٦].

---

(١) المقصد الأسنى لأبى حامد الغزالي صـ ١٣٣ ، وأسماء الله الحسنى لعبد العظيم إبراهيم فرج صـ ١٦٦ ، وأسماء الله الحسنى لتاج الدين نوفل صـ ٢٣٤ .
(٢) سورة القمر ، الآية: ٥٠ .
(٣) سورة النحل ، من الآية: ٧٧ .
(٤) سورة المؤمنون ، الآيات: ١٢: ١٤ .
(٥) سورة الزمر ، من الآية: ٦ .
(٦) الأسماء الحسنى ، تجليات وأدعية ، بقلم ، عبد السلام محمد بدوى صـ ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

كما أنه-ﷻ-صبور على العصاة والكفرة فلا يؤاخذهم بالعقوبة على الفور ؛ لذلك عرف البعض (الصبور) بأنه "الذي يمهل ولا يهمل .. ويحلم ولا يعجل .. شأنه الإمهال لا الإهمال .. والحلم لا الاستعجال"[١].

وهذه حكمة عظيمة .. "فصبره الواسع يحول دون التعجيل بالعقوبة ، لعل العبد المذنب يتوب فيتوب الله عليه ، ولعله يقلع عن الذنب فيبدل الله سيئاته حسنات ، ولا حرج على فضل الله .. فهناك من يعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فينجو من العذاب"[٢].

وقال العلماء أيضا فى معنى الصبور: أنه" الذي يلهم الصبر لجميع خلقه ، الصابر على مالا يرضاه من عباده ، لا تستفزه المعاص ، ولا يعجل بالعقوبة على من عصاه-ﷻ-إذا أعرضت عنه بالعصيان أقبل عليك بالعفو والغفران"[٣].

من خلال هذه التعريفات يتبين أن الصبور: هو الذي لا يعاجل بالعقوبة وهو قريب من معنى الحليم ، قال ابن منظور-رحمه الله-:"الصبور هو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام ، وهو من أبنية المبالغة ، ومعناه قريب من معنى الحليم"[٤].

وقال الزجاج-رحمه الله-:"الصبور فعول بمعنى فاعل ، ومعنى الصبر والصبور فى اسم الله تعالى قريب من معنى الحليم"[٥].

ولقد ذكر العلماء الفرق بين الصبور والحليم في اسم الله-ﷻ-..قال ابن منظور-رحمه الله-:"الفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها فى صفة الحليم"[٦].

---

(١) أسماء الله الحسنى لتاج الدين نوفل صـ ٢٣٤ .

(٢) موسوعة القصص القرآني ، أسماء الله الحسنى للدكتور / حمزة النشرتى ، الشيخ / عبد الحفيظ فرغلى ، الدكتور / عبد الحميد مصطفى صـ ٦٩٩ .

(٣) موسوعة القصص القرآنى - أسماء الله الحسنى للدكتور / حمزة النشرتى ، الشيخ / عبد الحفيظ فرغلى ، الدكتور / عبد الحميد مصطفى صـ ٦٩٩.

(٤) لسان العرب ٢٣٩١/٤ باب الصاد ، ط دار المعارف .

(٥) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (إسحاق إبراهيم بن محمد بن سهيل الزجاج) ، صـ ٦٥ ، ط دار الثقافة العربية ، تحقيق ، أحمد يوسف الرقاق .

(٦) لسان العرب لابن منظور ٢٣٩١/٤ ، باب الصاد ، مادة صبر ، دار المعارف .

وقال ابن القيم–رحمه الله–:"إذا أردت معرفة صبر الله تعالى وحلمه ، والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى:"إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا "[1] .. وقوله:"وقالوا اتخذ الرحمن ولدا {} لقد جئتم شيئا إدا {} تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا {} أن دعوا للرحمن ولدا"[2] .. وقوله تعالى:"وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال"[3] .. على قراءة من فتح اللام–فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض ، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر ، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه ، وفى الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهمان وتستأذنان بالزوال لعظم ما يأتي به العباد فيمسكهما بحلمه ومغفرته ، وذلك حبس عقوبته عنهم ، وهو حقيقة صبره تعالى ، فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم ، والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة ، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله"[4].

هذا ولم يرد وصف الله–ﷻ–بالصبر في التنزيل ، وإنما ورد في سلسلة الأسماء التي جاء بها الحديث الشريف"[5].

كما روى عن جابر–ﷺ–عن النبي–ﷺ–قال :"لما عرج بإبراهيم رأى رجلا يفجر بامرأة ، فدعا عليه فأهلك ، ثم رأى رجلا على معصية فدعا عليه ، فأوحى الله إليه أنه عبده ، وأن مصيره

---

[1] سورة فاطر ، الآية: ٤١ .
[2] سورة مريم ، الآيات: ٨٨ : ٩١ .
[3] سورة إبراهيم ، من الآية: ٤٦ .
[4] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين للإمام ابن القيم الجو زيه صـ ٢٨٣ ، تحقيق ، محمد عبد الملك الزغبى ، دار المنار .
[5] فعن أبى هريرة ، قال ، قال رسول الله ﷺ "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة .. هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعال ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور . (سنن الترمذي ، كتاب الدعوات عن رسول الله -ﷺ- ٥/٥٣١ ، رقم الحديث (٣٥٠٧).
وقال أبو عيسى هذا حديث غريب ، حدثنا غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث ، دار الحديث ، القاهرة ، تحقيق ، الشيخ / إبراهيم عطوة عوض.

منى خصال ثلاث ؛ إما أن يتوب فأتوب عليه ، وإما أن يستغفرني فأغفر له ، وإما أن يخرج من صلبه من يعبدني .. يا إبراهيم ، أما علمت أن من أسمائي أنى أنا الصبور"[1].

كما أن العلماء قد استنبطوا هذا الاسم من معنى الحليم للمقاربة بينهما مع الفارق الذي أشرت إليه مسبقا.

ومن خلال ما سبق تبين أن الحليم والصبور اسمان لله-ﷻ-معناهما إمهال الله عباده- المؤمن منهم والكافر-للتوبة والإنابة إليه-ﷻ-وعدم معاجلتهم بالعقوبة ، إذ لو عاجل كل مذنب بذنبه ما ترك عليها من دابة ، وما بقى أحد في هذه الأرض ، إذ ما من أحد إلا ويخطئ ويصيب ، كما يتبين أن اسم الله "الصبور" لم يرد في القرآن الكريم ، وإنما وضحته السنة النبوية ، وأوله العلماء على تأويل الحلم.

أما "الحليم" فقد ورد في التنزيل العزيز في عدة آيات ، وكلها إنما تدل على حلم الله ورحمته وإنعامه على عباده بعدم معاجلتهم العقوبة ، وإمهالهم للعودة إليه ، والاستغفار والإنابة لخالقهم ومولاهم ، ومن هذه الآيات قوله تعالى:"لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم"[2] .. وقوله :"قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم"[3] .. وقوله تعالى :"والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما"[4] .. وقوله :"إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم"[5].

ونلاحظ من خلال هذه الآيات أن اسم الله الحليم لم يرد منفردا وإنما جاء مقترنا بغيره ، ففى الآية الأولى-ورد مقترنا باسمه-ﷻ-"الغفور" ، وفى الآية الثانية-ورد مقترنا باسمه "الغنى" ، وفى الثالثة-ورد مقترنا باسمه "العليم" ، وفى الرابعة-ورد مقترنا باسمه "الشكور" ، وفى كل معنى ومغزى.

---

[1] رواه الهيثمي فى مجمعه ، باب فى ذكر إبراهيم الخليل وبنيه ، صلى الله على نبينا وعليهم وسلم ٢٠١/٨ ، وقال رواه الطبراني فى الأوسط وفيه على بن أبى على اللهبى ، وهو متروك .. كما رواه الطبراني فى الأوسط ٢٧١/٧ ، عن جابر أيضا.

[2] سورة البقرة ، الآية: ٢٢٥ .

[3] سورة البقرة ، الآية: ٢٦٣ .

[4] سورة الأحزاب ، من الآية: ٥١ .

[5] سورة التغابن ، الآية: ١٧ .

"**ففي الآية الأولى** : إخبار وإعلام بأن الله لا يؤاخذ الناس بما يجرى على ألسنتهم من ساقط الكلام الذي لا يعتد به أو من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف ، لكن المؤاخذة تتم عند قصد عقد القلب عليه ، وتأكيد بأن الله يسع بمغفرته من يشاء ولا يطارد عباده أو يعاجلهم بعقوبته"[١]. قال الإمام السعدي–رحمه الله–:"لا يؤاخذكم الله بما يجرى على ألسنتكم من الأيمان اللاغية التي يتكلم بها العبد من غير قصد فيه ولا كسب قلب ، ولكنها جرت على لسانه ، كقول الرجل فى عرض كلامه–لا والله ، بلى والله–وكحلفه على أمر ماض يظن صدق نفسه ، وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب"[٢].

ولقد روى فى سبب نزول هذه الآية عن عائشة–ﷺ–أنها قالت :" نزلت هذه الآية "لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم" فى قول الرجل (لا والله–بلى والله)"[٣] وهو إنما يقولها ليؤكد بها كلامه لا غير ، دون قصد الحلف أو القسم بالله ﷻ.

واللغو واللغا كما قال ابن منظور–رحمه الله–:"السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع ، واللغو في الإيمان ما لا يعقد عليه القلب ، مثل قولك : لا والله وبلى والله"[٤] وهذا من فضل الله على عباده فهو لا يعاجلهم بالمؤاخذة بمجرد صدور السهو عنهم بل يمهلهم حتى يتوبوا وينيبوا إلى بارئهم ،"فهو "الغفور" لمن تاب ، "الحليم" لمن عصاه حيث لا يعاجله بالعقوبة بل حلم عنه وستر وصفح مع قدرته عليه وكونه بين يديه"[٥].

أما الآية الثانية : وهى قوله " قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم"" ... فلقد قرن وصف الحليم بالغنى ؛ والمغزى في ذلك" أن الآية قد انصبت على قول الأحسن في رد المسائل والصفح عند الحاجة باعتبار أن ذلك أفضل من إعطائه وإيذائه ، وتنويه بأن الله مستغن عن الخلق فلا ينال من صدقتهم شيئا ولا يعجل بالعقوبة لمن خالف أمره ، وإقران الغنى بالحلم هنا يجب أن يكون له معنى ومغزى ، فمهما كانت نفسية المسئول من السائل ، أو مهما كانت نفسية

---

[١] أسماء الله الحسنى ، الأصول القيمية والمعاني السلوكية في الإسلام لعبد العظيم إبراهيم فرج صـ ١٧٢ ، ١٧٣.
[٢] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ١٠١ .
[٣] أخرجه البخاري فى صحيحه ، كتاب التفسير ، باب لا يؤاخذكم الله باللغو غي أيمانكم ١٤٠٧/٣ ، رقم الحديث (٤٦١٣) .
[٤] لسان العرب لابن منظور ٤٠٤٩/٥ ، باب اللام ، مادة لغا .
[٥] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ١٠١ .

المسئول عند سؤاله فلا تنعكس بها الانفعالية لتوحي بالغضب أو إشاحة الوجه عند السائل أو نهره ، أو إعطائه وإتباع ذلك بإيذائه أو تعييره بذل السؤال ، بل أن ترتسم في نفسك صورة الغني عن كل ذلك ، وبأن الأقدار إذا كانت قد كفتك ذل السؤال ووقوفك مكانه فإنها كفيلة بأن تغنيه من فضله وتسلبك جاهك ومالك ، إلا أن الله-ﷻ-له حكمة في ذلك ، فيمهلك بعقوبته تحقيقا لحلمه وليفسح المجال لمراجعة النفس والوقوف على حقيقة الغنى والمغنى الحقيقي"[1].

وهذا الحلم والإمهال من الله-جل شأنه-يجعل المرء يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه ربه ، ويرجع إلى نفسه لينظر المالك الحقيقي لهذا المال الذي أعطاه الله إياه ، يقول الإمام الرازي-رحمه الله : "الله-ﷻ-غنى عن صدقة العباد وإنما أمركم بها ليثيبكم عليها "حليم" إذ لم يعجل بالعقوبة على من يمن ويؤذى بصدقته"[2].

ويحتمل أن يكون للآية مغزى آخر وهو أنه -ﷻ- إذا كان المالك الحقيقي لهذا المال الغنى عن جميع العالمين ، حليم عمن عصاه وآذاه ، يرزق العاصي ويعافيه ، ويدر عليه من خيره ، فعل المحسن إلى من أساء إليه وهذا ، فضل منه ورحمة ، فمن باب أولى لمن استخلفه الله على هذا المال أن يحلم على من جاءه سائلا واقفا على بابه ، فلا يؤذيه بصدقته ، بل يضع نصب عينيه أن المالك لهذا المال يحلم عليه ويرزقه رغم عصيانه له.

قال الإمام السعدي-رحمه الله-:"الله -ﷻ- مع كمال غناه وسعة عطاياه يحلم عن العاصين ولا يعاجلهم بالعقوبة ، بل يعافيهم ويرزقهم ، ويدر عليهم الخير ، وهم مبارزون له بالمعاصي"[3].

أما الآية الثالثة : وهى ما اقترن فيها الحلم بالعلم "وكان الله عليما حليما" .. فهي تؤكد علم الله وحلمه ، وذلك هو علم ما خفي وأعلن ، وحلم من يمهل ولا يهمل ، بل يضع الأمور فى نصابها ويدبر أمرها .. والآية قد حملت نهى أزواج النبي-ﷺ-عن الشعور بالغضب الذي يسوده الحزن والألم لبادرة الرسول-ﷺ-من زواج "زينب بنت جحش"[4] وإعطاء الخيار له في استبقاء أو إطلاق

---

[1] أسماء الله الحسنى ، الأصول القيمية والمعاني السلوكية لـ عبد العظيم إبراهيم فرج صـ ١٧٣ .

[2] مفاتيح الغيب ، المجلد الرابع ٤٤/٧ .

[3] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ١١٣ .

[4] زينب بنت جحش الأسدية ، أم المؤمنين زوج النبي ﷺ - أمها أمية عمة النبى ﷺ - تزوجها النبى ﷺ سنة ٣ وقيل سنة ٥ ونزلت بسببها آية الحجاب وكانت قبله عند مولاه "زيد بن حارثه" وفيها نزل قول الله "فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها" .. روت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة ، وروى عنها ابن أخيها "عبد الله بن جحش" و

من يشاء منهن ؛ لأنها تحمل حكما توجيهيا لأمهات المؤمنين بالرضا عن تصرف الرسول-ﷺ-لأنه أمر الله ولا معقب لأمره ، وأن مثار الرضا فى إكرامهن وتحريم الزواج من بعد ذلك بغيرهن حتى ولو أعجبه جمالهن وحسنهن"[١].

ويجوز أن تكون الآية تخييرا للنبي-ﷺ-في القسم بين زوجاته ، فله الحرية المطلقة في أن يؤخر مضاجعة من يشاء من نسائه ، ويبيت مع من يشاء فلا حرج له في أن يترك القسم لهن ، و"فى هذا تطييب لخاطرهن ؛ لأنهن إذا علمن أنك تقسم بينهن باختيارك لا جبر عليك فرحن بذلك ، واستبشرن به ، وقدرن جميلك ، واعترفن بمنيتك عليهن في قسمك لهن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك فيهن ، ورضين بما تفعل ، دون إقلاق ولا بلبلة"[٢].

ثم يخاطب الله نبيه-ﷺ-وأزواجه بطريق تغليب الذكور فقال :"والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما" .. أى أن الله عليم تام العلم بالميل إلى بعضهن دون بعض ، من غير اختيار ، ومما لا يمكن دفعه ، وكان الله وما يزال عليما بما تخفيه النفوس ، وتكتمه السرائر ، حليما يحلم ويغفر ، فلا يعاجل المذنبين بالعقوبة ليتمكنوا من التوبة والإنابة"[٣].

قال الإمام الألوسى-رحمه الله :"الله -ﷻ- "عليما" مبالغا في العلم فيعلم كل ما يبدى وما يخفى ، "حليما" مبالغا في الحلم فلا يعجل-سبحانه-بمقابلة من يفعل خلاف ما يحب حسبما يقتضيه فعله من عتاب أو عقاب ، أو يصفح عما يغلب على القلب من الميول"[٤].

وفى هذا حث على حسن نوايا العبد وسلامة الطوية فلا يضمر المرء شيئا مخالفا لأمر الله ويستحق به عقابه ، ومع ذلك فلو أضمر شيئا فإن الله يعلمه-فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور-فلا يعاجله بمعاقبته عليه بل يمهله للتوبة والاستغفار.

"أم حبيبة بنت أبى سفيان" وغيرهم ، ماتت سنة٢٠ ، وكانت أول نساء النبي ﷺ موتا بعده .. قال الواقدى ، تزوجها النبي ﷺ وهى بنت خمس وثلاثين سنة وماتت سنة عشرين وهى بنت خمسين ، وقيل أنها عاشت ثلاثا وخمسين . (انظر الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٧ صـ ٦٦٧ ، وما بعدها .

[١] أسماء الله الحسنى لعبد العظيم إبراهيم فرج صـ ١٧٣ .

[٢] التفسير المنير ، د/ وهبه الزحيلى ٦٧/٢٢ .

[٣] التفسير المنير ، د/ وهبه الزحيلى ٦٨/٢٢ .

[٤] روح المعاني ٦٤/٢٢ بتصرف يسير .

أما الآية الرابعة : وهى قوله تعالى " إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم".." فالآية حملت صورة من صور الاستعارة التمثيلية من تشبيه الإنفاق والتصدق على الفقراء بمن يقرض الله قرضا واجب الأداء بضعفين من الأجر والثواب ، وذلك ترغيب في الإنفاق وتحبيب له ؛ ليسلم الإنسان من البخل والطمع ، كما تؤكد بأن الله يمحو السيئات ويثيب الشاكر على إحسانه ولا يعاجل بعقوبة الإنسان رغما من كثرة ذنوبه ، بل يفسح المجال أمامه للتوقي والترقي"[١].

فالله-ﷻ-يجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والله يضاعف لمن يشاء .. أما السيئة فلا يجازى-ﷻ-صاحبها إلا بمثلها ، وقد يحلم عنه فيمهله للتوبة منها فإن تاب عفا عنه ، وإلا فإن شاء غفرها له وإن شاء عاقبه عليها ، لذلك قرن المولى-ﷻ-الشكر بالحلم ليبين عظمة إحسانه ، ورحمته بعباده ، قال الإمام الشوكانى-رحمه الله-:"شكور يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ولا يعاجل من عصاة بالعقوبة"[٢] .

فهو-ﷻ-يؤخر العقوبة عن مستحقيها ثم يعذبهم إن لم يتوبوا أو قد يتجاوز عنهم فيغفر لهم ، فهو الرحيم الحليم الذي كتب على نفسه الرحمة ، قال-ﷻ-:"وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم"[٣]. وقد روى في سبب نزول هذه الآية "أن قوما أتوا النبي-ﷺ-فقالوا : إنا أصبنا ذنوبا عظاما ، فما رد عليهم بشيئ ، فلما ذهبوا وتولوا نزلت هذه الآية"[٤]. وقيل "إن الآية نزلت فى الذين نهى الله تعالى نبيه-ﷺ-عن طردهم فكان إذا رآهم النبي-ﷺ-بدأهم بالسلام ، وقال :"الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام"[٥] .. وقيل" إن الآية على إطلاقها في كل مؤمن ؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[٦].

---

(١) أسماء الله الحسنى لعبد العظيم إبراهيم فرج صـ ١٧٣ بتصرف يسير .
(٢) فتح القدير ٢٣٩/٥ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية: ٥٤ .
(٤) أسباب النزول للواحدى صـ ١٥١ .
(٥) أسباب النزول للواحدى صـ ١٥٠ .
(٦) فتح البيان فى مقاصد القرآن لـ صديق حسن خان ١٦٨/٣ ، دار الفكر العربى.

وهذا الأخير هو ما اختاره الإمام الرازي والألوسى–رحمهما الله–قال الإمام الرازي:"والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل الآية على عمومها ، فكل من آمن بالله ، دخل تحت التشريف"[١]. وقال الألوسى :"لم تنزل الآية فى قوم بأعيانهم ، بل هي محمولة على إطلاقها"[٢].

ومعنى الآية كما قال الشيخ المراغى–رحمه الله–:"إذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابنا وحججنا ويقرون بذلك قولا وعملا ، سائلين عن ذنوبهم التي فرطت منهم ، هل لهم من توبة ، فلا تؤيسهم منها ، وقل لهم : سلام عليكم ، أي أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها"[٣].

وفى ذلك بشرى لمن أذنب ثم تاب ورجع إلى مولاه–ﷻ–فإن رحمته واسعة ، أوجبها على نفسه تفضلا منه وإحسانا وامتنانا ، فقال :" كتب ربكم على نفسه الرحمة" ، يقول الأستاذ الكبير–مصطفى المراغى–عليه رحمة الله–:"أوجب على ذاته المقدسة تفضلا منه وإحسانا الرحمة بخلقه ، فإن فيما سخر للبشر من أسباب المعيشة المادية ، وفيما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية"[٤]. فإذا ما أذنب العبد سبقت رحمة الله غضبه فلا يعاجله بالعقوبة ، روى عن أبى هريرة–ﷺ–عن النبي–ﷺ–قال :"إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبى"[٥] . وفى رواية "غلبت غضبى"[٦].

قال الإمام ابن الأثير–رحمه الله–:" قوله "إن رحمتي سبقت غضبى" إشارة إلى الرحمة وشمولها الخلق كما يقال : غلب على فلان الكرم أى هو أكثر خصاله"[٧].

---

[١] مفاتيح الغيب ، المجلد السابع ٣/١٣ .
[٢] روح المعاني ١٦٤/٧ .
[٣] تفسير المراغى ١٣٨/٧ .
[٤] تفسير المراغى ١٣٨/٧ ، وانظر فتح البيان ١٦٨/٣ .
[٥] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ٢٣١٦/٥ ، رقم الحديث (٧٤٢٢) .. كما أخرجه في نفس الكتاب ، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ٢٣٢٨/٥ ، رقم الحديث (٧٤٥٣).
[٦] أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب في قول الله تعالى "وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه" ٩٨٦/٢ ، رقم الحديث (٣١٩٤) .. كما أخرجه في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى "ويحذركم الله نفسه" ، وقوله عز وجل "تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك" ٢٣١٠/٥ ، رقم الحديث (٧٤٠٤).
كما أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب التوحيد ، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ٢١٠٧/٤ ، ٢١٠٨ ، رقم الحديث (٢٧٥١) ، بلفظ "لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش "إن رحمتي تغلب غضبى".
[٧] النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٧٧/٤ .

فالرحمة إنما هي مقتضى ذات الله-ﷻ-فهو الرحيم بعباده الرءوف بهم ، وأما الغضب فهو متوقف على فعل العبد ما يسوء ، قال ابن حجر-رحمه الله-:"المراد من الغضب لازمه وهو إرادة إيصال العذاب إلى من يقع عليه الغضب ؛ لأن السبق والغلبة باعتبار التعلق ، أى تعلق الرحمة سابق على تعلق الغضب ؛ لأن الرحمة مقتضى ذاته المقدسة ، وأما الغضب فإنه متوقف على سابقة عمل من العبد الحادث"[١].

ومن مظاهر رحمة الله-ﷻ-التي أوجبها على نفسه "أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم" قال الأستاذ مصطفى المراغى-رحمه الله-: "أى أن من عمل منكم عملا تسوء عاقبته ، للضرر الذي حرمه الله لأجله ، حال كونه ملتبسا بجهالة دفعته إلى ذلك السوء ، كغضب شديد حمله على السب والضرب ، أو شهوة مغتلمة قادته إلى انتهاك العرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله ، شاعرا بقبحه ، أو نادما عليه ، خائفا من عاقبته ، وأصلح عمله بأن أتبع هذا العمل السيئ بعمل يضاده ، أو يذهب أثره من قلبه ، حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها ، وتصير أهلا للقرب من ربها ، فشأنه تعالى في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة ، فيغفر لمن تاب عنه ، ويتغمده برحمته وإحسانه"[٢].

وقد اختلف في قوله "بجهالة" .. فقيل :" إنه فعل فعل الجاهلين ؛ لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر في العاقبة مع علمه بذلك أو لظنه فقد فعل فعل أهل الجهل والسفه لا فعل أهل الحكمة والتدبير .. وقيل : المعنى أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة والعقاب وما فاته من الثواب"[٣].

قال مجاهد عند تفسير قوله تعالى :" للذين يعملون السوء بجهالة"[٤] .." كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن المعصية"[٥]. فالجهل إنما هو عدم العلم بالعاقبة أو مضرة ما فرط منه من ذنب أو خطيئة ؛ لذلك لم يعاقبه الله على ما فرط منه ، بل أمهله للتوبة منها والإخلاص في الندم ، والعزم على أن لا يعود ، قال تعالى :"ثم تاب من بعده وأصلح".

---

(١) فتح الباري ٣٣٧/٦ ، كتاب بدء الخلق ، دار الريان للتراث ، المكتبة السلفية .
(٢) تفسير المراغى ١٣٩/٧ .
(٣) فتح البيان ١٦٨/٣ .
(٤) سورة النساء ، من الآية: ١٧ .
(٥) تفسير مجاهد ١٤٩/١ بتصرف يسير .

قال الإمام السعدي–رحمه الله–:"لابد من ترك الذنوب ، والإقلاع والندم عليها من إصلاح العمل ، وأداء ما أوجب الله ، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة"[١].

ويوضح لنا سيد المرسلين–ﷺ–تلك النعمة التى أنعم بها الله–ﷻ–على عباده ، وأنه–ﷻ–لا يعذب عباده بمجرد صدور الذنب عنهم ، بل يمهلهم للتوبة ، فيقول–ﷺ–فيما يرويه عنه معاذ بن جبل–رضي الله عنه–أن رسول الله–ﷺ–قال :" يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ .. قال : الله ورسوله أعلم .. قال : أن يعبد الله ولا يشرك به شيئ .. قال : أتدرى ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك ؟ .. فقال : الله ورسوله أعلم .. قال : أن لا يعذبهم"[٢]. قال ابن حجر–رحمه الله :"المراد بالحق هنا المتحقق الثابت أو الجدير ؛ لأن إحسان الرب لمن لم يتخذ ربا سواه جدير في الحكمة أن لا يعذبه ، أو المراد أنه كالواجب في تحققه وتأكده"[٣] ، فالحديث إخبار من الله–ﷻ–بغفرانه جميع الذنوب ما عدا الشرك به . قال تعالى :"إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"[٤]. ولكنه–ﷻ–لا يعاجل الكافر بالمؤاخذة بل يمهله تارة بإغداق المال عليه ؛ لعله يتذكر عظمة المنعم عليه وتارة بالتضييق عليه لعله يستغيث بخالقه فيتوب إليه . قال تعالى :" ونبلوكم بالشر والخير فتنة"[٥].

فهذه الرحمة المكتوبة على نفسه–ﷻ–اقتضت غفران ذنب من أجرم ثم تاب ؛ لذلك ختم الله–ﷻ–الآية بقوله "فإنه غفور رحيم" ، قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين :" لم يختم الآية بهذا إلا لينال التائب المغفرة والرحمة ، هذا من رحمته التي كتبها على نفسه ، وإلا لكان مقتضى العدل أن يؤاخذه على ذنبه ، ويجزيه على عمله الصالح . فلو أن رجلا أذنب خمسين يوما ، ثم تاب وأصلح خمسين يوما ، فالعدل أن نعذبه عن خمسين يوما ، ونجازيه بالثواب عن خمسين يوما ، لكن الله–ﷻ–كتب على نفسه الرحمة ، فكل الخمسين يوما التي ذهبت من السوء تمحى وتزال بساعة ، وزد على ذلك :" فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات "[٦] .. السيئات الماضية تكون حسنات ؛ لأن كل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ٢٥٨ ، وانظر تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ١٣٧/٢ .

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ، كتاب التوحيد ، باب ما جاء فى دعاء النبى -ﷺ- أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٢٣٠١/٥ ، رقم الحديث (٧٣٧٣) . كما أخرجه مسلم فى صحيحه ، واللفظ له ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ٥٩/١ ، رقم الحديث (٣٠) .

(٣) فتح الباري ٣٤٨/١١ ، كتاب الرقاق ، باب من جاهد نفسه فى طاعة الله ، ط دار الريان للتراث .

(٤) سورة النساء ، من الآية: ٤٨ .

(٥) سورة الأنبياء ، من الآية: ٣٥ .

(٦) سورة الفرقان ، من الآية: ٧٠ .

حسنة عنها توبة ، وكل توبة فيها أجر ؛ فظهر بهذا أثر قوله تعالى " كتب ربكم على نفسه الرحمة"[١]. ونظير هذه الآية قوله تعالى "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولـئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما"[٢].

وهذا كله يدل على أن الله لا يعاجل العصاة بالعقوبة إذا صدر منهم ذنب بل يمهلهم للتوبة ، فإن حسنت التوبة تقبلها الله ، وإلا عاقبهم على ذنبهم إما في الدنيا وإما أن يدخر لهم العقاب في الآخرة ، قال الإمام القشيري–رحمه الله :"فمن تعاطى شيئا من أعمال الجهال ، قابلنا ذلك بحسن الإمهال وجميل الإفضال فإذا عاد بتوبة أقبلنا عليه بكل لطف وقبول"[٣].

والرحمة بالإمهال شملت المؤمن والكافر ، قال تعالى :"**ورحمتي وسعت كل شيء**"[٤] .. ولقد ذكر العلماء عن هذه الآية " أربعة أقوال :

أحدها : أن مخرجه عام ومعناه خاص ، وتأويله رحمتي وسعت المؤمنين من أمة محمد–ﷺ–.

الثاني : أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا ، والخصوص في الآخرة ، وتأويلها رحمتي وسعت كل شئ فى الدنيا ، البر والفاجر ، وفى الآخرة للمتقين خاصة ، فعلى هذا المعنى الرحمة فى الدنيا للكافرين فى أنه يرزقه ويدفع عنه كقوله فى حق قارون: " وأحسن كما أحسن الله إليك"[٥].

الثالث: أن الرحمة والتوبة على العموم .

الرابع : أن الرحمة تسع كل الخلق إلا أن أهل الكفر خارجون منها ، فلو قدر دخولهم فيها لوسعتهم"[٦].

والوجه عندي–والله أعلم–أن رحمة الله عمت المؤمن والكافر فى الدنيا ، وخاصة بالمؤمن فى الآخرة ؛ إذ أن الله–ﷻ–قد رزق الكافر كما يرزق المؤمن ، بل أحيانا ترى أن الكافر قد يكون

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لفضيلة الشيخ / محمد بن صالح العثيمين صـ ٢٠٩ ، إعداد ، فهد بن ناصر بن إبراهيم سليمان ، دار الثريا للنشر ، ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .
(٢) سورة النساء ، الآية: ١٧ .
(٣) لطائف الإشارات ٤٧٧/١ .
(٤) سورة الأعراف ، من الآية: ١٥٦ .
(٥) سورة القصص ، من الآية: ٧٧ .
(٦) زاد المسير لابن الجوزى ٢٧١/٣ .

أكثر مالا وأولادا من المؤمن ، وهذا هو حلم الله وصبره " فلو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة .. ما سقى الكافر منها شربة ماء .. إن الله يرزق من يسبه .. كما يرزق من يحبه .. فيأكل خيره .. من يعبد غيره .. ومن لا يعبد غيره"[١].

وقد روى عن أبى موسى الأشعري–ﷺ– [٢] عن النبي–ﷺ–قال :"ليس أحد أو ليس شيئ أصبر–على أذى سمعه–من الله ؛ إنهم ليدعون له ولدا وإنه ليعافيهم ويرزقهم"[٣].

فالآية إذن.. هي نور أمل للعصاة والكفرة ؛ لكي يتوبوا إلى مولاهم الذي أحاطت رحمته كل شئ ، قال الإمام القشيري :" فى هذه الآية مجال لآمال العصاة ؛ لأنهم وإن لم يكونوا من جملة المطيعين والعابدين والعارفين ، فهم "شئ"[٤].

فتلك الرحمة التى وسعت كل شئونهم ، والعفو الكريم المقابل لأخطائهم وذنوبهم ، والحلم الواسع الذي يعاملهم به دائما رغم جهلهم وغضبهم ، ليس ذلك كله لشئ إلا لأن الله تعالى الذي خلقهم وهو أعلم بأحوالهم أراد أن يقول لهم فى صراحة تامة وبيان جلي "إنني أنا الله تعالى القادر على كل شئ والمستطيع على أخذ المجرم بجرمه ، واخذ الناس بما كسبوا دون إمهال أو انتظار ولكن لو فعلت ذلك ما تركت على ظهرها من دابة ، ولكن حلمي سبق غضبى ورحمتي سبقت عذابي"[٥].قال تعالى :"ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا"[٦].

---

(١) أسماء الله الحسنى لتاج الدين نوفل صـ ٢٣٤ .

(٢) أبو موسي الأشعري عبد الله بن قيس بن سليم أبو موسي من بني الأشعر ، صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين ، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين ، توفي بالكوفة ٤٤ هـ – ٦٦٥م ، وكان أحسن الصحابة صوتا في التلاوة له ٣٥٥ حديثا ، انظر الأعلام ١١٤/٤ ، ط السابعة ، ١٩٨٦م.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الصبر على الأذى ، وقوله تعالى ،"إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" ١٩٢٤/٤ ، رقم الحديث (٦٠٩٩) .

(٤) لطائف الإشارات ٥٧٦/١ .

(٥) انظر مجلة كلية أصول الدين بأسيوط صـ ٢٠ بتصرف ، العدد الأول شعبان ١٤٠٣هـ – مايو ١٩٨٣م ، عند الحديث عن موضوع خلق العفو والصفح الجميل بين آيات التنزيل ، بقلم ، د/ محمد بحيرى ابراهيم .

(٦) سورة فاطر ، الآية: ٤٥ .

فهذه الآية" إنما ذكرت لما خوف الله المكذبين بمن مضى فكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون العذاب ، ويقولون : عجل لنا عذابنا ، فقال ﷻ للعذاب: أجل ، والله لا يؤاخذ الناس بالظلم نفسه فإن الإنسان ظلوم جهول وإنما يؤاخذ بالإصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم"[١].

فلو آخذ الله الناس بمعاصيهم وكفرهم ما بقى أحد على وجه الأرض البر منهم والفاجر ، قال-ﷺ-فيما يرويه أبو هريرة-رضي الله عنه-:"مهلا فإن الله-تبارك وتعالى-شديد العقاب ، فلولا صبيان رضع ورجال ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب"[٢].

فتلك رحمة من الله بعباده ، فلولا هؤلاء لهلك من فى الأرض جميعا بذنوبهم ، يقول الشيخ/سيد قطب مصورا لنا ختام هذه السورة بهذه الآية :"وأخيرا يجئ ختام السورة يكشف عن حلم الله ورحمته ، إلى جانب قوته وقدرته ، ويؤكد أن إمهال الناس عن حلم وعن رحمة لا يؤثر فى دقة الحساب وعدل الجزاء فى النهاية .. والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المفسد المدمر للحياة كلها لو أخذهم الله به مؤاخذة سريعة ، غير أن الله حليم لا يعجل على الناس"[٣].

ويقول الدكتور وهبه الزحيلى :"اقتضت رحمة الله-تبارك وتعالى-أن لا يعجل بالعذاب للعصاة والكفار على ذنوبهم ، وإنما يؤخرهم ويمهلهم إلى يوم معين ؛ كى تكون لديهم فرصة فيتداركوا تقصيرهم ويعدلوا عن ظلمهم ، وكان مقتضى العدل تعجيل العقوبة ، وإذا فعل ذلك أهلك جميع المخلوقات ، إلا من يشاء الله ، والله سبحانه عليم بمن يستحق العقاب منهم"[٤].

هكذا أوضحت تلك الآية حلم ﷻ ورحمته ، وأنه لو أراد أن يعاقب الناس ويحاسبهم على ما عملوا من الذنوب والمعاصي ، وما اجترحوا من الآثام ما ترك على ظهرها من دابة تدب عليها ، ولكن سنة الله اقتضت أن يؤخر عقاب الناس ومؤاخذتهم بما كسبوا ، إلى وقته وهو يوم القيامة ،

---

[١] مفاتيح الغيب ، المجلد الثالث عشر ٣٣/٢٦ .

[٢] ذكره الهيثمى فى مجمعه ، باب لولا أهل الطاعة لهلك أهل المعصية ٢٢٧/١٠ ، وقال الهيثمى ، رواه الطبراني فى الأوسط إلا أنه قال ، لولا شباب خشع وشيوخ ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا .. ثم لرضي رضا ، وقال مهلا عن الله مهلا . وفيه إبراهيم بن هيثم وهو ضعيف ، وانظر المعجم الأوسط للطبراني ١٣٤/٧ ، ١٣٥ ، رقم الحديث (٧٠٨٥) ، وقال الطبرانى ، لم يرو هذا الحديث عن خيثم إلا أنه تفرد به عن سريح ولم يروى عن أبى هريرة إلا بهذا الإسناد .

[٣] فى ظلال القرآن ٢٩٥٠/٥-٢٩٥١ باختصار ، دار الشروق .

[٤] التفسير المنير ٢٨٥/٢٢-٢٨٦ .

فإذا جاء ذلك اليوم فإن الله-ﷻ-البصير بأحوال عباده سيجازيهم على أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، قال عز من قائل :"وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا"[١].

قال الإمام السعدي-رحمه الله :"هذه سنته فى الأولين والآخرين أن يعاجلهم بالعقاب بل يستدعيهم للتوبة والإنابة فإن تابوا وأنابوا غفر لهم ورحمهم وأزال عنهم العقاب وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم وجاء الوقت الذي جعل موعدا لهم أنزل بهم بأسه"[٢].

فالله-ﷻ-يحلم ويستر ويغفر وربما هدى بعضهم من الغى إلى الرشاد ، أما من استمر فى غيه وعناده فله يوم يشيب منه الوليد ، وتضع فيه كل ذات حمل حملها ، ولهذا قال :" بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا" .. أى ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل"[٣].

قال ابن منظور :"وأل إليه وألا ووءولا ووئيلا ، وواءل مواءله ووئالا : لجأ ، والوأل والموئل : الملجأ"[٤] أى لم يجدوا ملجأ ولا منجى لهم من عذاب الله وعقابه ، وليحذروا وهم فى وقت الإمهال ، وعليهم التوبة والإنابة ، قبل فوات الأوان ، وقبل مجيئ الوقت الذي لا ينفع فيه ندم ولا توبة ولا عبادة .

فالإمهال سلاح ذو حدين ، فمن العباد من يتعظ ويحسن استغلال هذه الفرص فيعود إلى الطاعة والقيام بما أمر به الله ، ومنهم من يتمادى فى غيه وعناده ويحسب أن الإمهال الرباني هو دليل على أنه فى منأى من عذاب الله وغضبه ، لذا تراه نعمة على الأول ، ونقمة على الثاني ، قال تعالى :"وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب"[٥].

فتراه-ﷻ-يجمع بيت الترغيب والترهيب ، والعقاب والمغفرة ، وهذا من عظمة وبراعة القرآن ، فالله-ﷻ-يغفر الذنوب ويمهل المذنبين إلا أنه-ﷻ-يمهل ولا يهمل ، فلا يترك المتمادي

---

[١] سورة الكهف ، الآية: ٥٨ .
[٢] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ٤٨١ .
[٣] انظر تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ٩٢/٣ بتصرف .
[٤] لسان العرب ٤٧٤٦/٦ ، باب الواو ، مادة وأل ، دار المعارف .
[٥] سورة الرعد ، من الآية: ٦ .

فى غيه سدى بدون عقاب ، وسأتحدث فى المبحث الثاني من هذا الفصل عن نقمة الإمهال على الكافرين–إن شاء الله تعالى.

فهؤلاء لم يدركوا فضل الله عليهم بإمهالهم للتوبة ، قال تعالى :" وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون"[١].

وهذا الفضل من الله على الكفار سواء من الأمم السابقة أم من أمة محمد–ﷺ–ولكنه–ﷻ–اختص أمة محمد–ﷺ–بالإمهال إلى يوم القيامة ، فالأمم السابقة لم يعاجلهم الله بالعقوبة إلا بعد إمهالهم بشتى أنواع الإمهال سواء بنعمة أو ابتلاء ، فلما استمروا فى طغيانهم عاجلهم الله بالعقوبة ، إذ لا حجة عندهم يحاجون بها مولاهم–ﷻ–أما أمة محمد–ﷺ–فلقد رحمهم الله تكريما وتشريفا لسيدنا محمد–ﷺ–قال تعالى :" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[٢] .. فتلك الرحمة اقتضت منع الاستئصال والإبادة لتلك الأمة المحمدية ، وقال عز من قائل :"ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى"[٣] ، وقال أيضا : "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون"[٤].

قال الإمام الرازي–رحمه الله :"لا شبهة فى أن الكلمة هي إخبار الله تعالى ملائكته وكتبته فى اللوح المحفوظ أن أمته–عليه السلام–وإن كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال"[٥].

ولقد اختلف فيما لأجله لم يفعل ذلك بأمة محمد–ﷺ–فقال بعضهم:"لأنه علم أن فيهم من يؤمن ، وقال آخرون : علم أن من نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب وعمهم الهلاك ، وقال آخرون : المصلحة فيه خفية لا يعلمها إلا هو ، وقال أهل السنة : له بحكم المالكية أن يخص من يشاء بفضله ومن يشاء بعذاب من غير علة"[٦].

---

[١] سورة النمل ، الآية: ٧٣ .
[٢] سورة الأنبياء ، الآية: ١٠٧ .
[٣] سورة طه ، الآية: ١٢٩ .
[٤] سورة الأنفال ، الآية : ٣٣.
[٥] مفاتيح الغيب ، المجلد الحادي عشر ١١٤/٢٢ .
[٦] مفاتيح الغيب ، المجلد الحادي عشر ١١٤/٢٢-١١٥ .

ويمكننا حصر أسباب إمهال الله أمة محمد-ﷺ-إلى يوم القيامة ، ونجاتهم من عذاب الاستئصال فيما يلي:

السبب الأول : رحمة برسول الله-ﷺ-فهو المبعوث رحمة للعالمين"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[1] .. ولم يكن الله ليعذب قومه وهو بين أظهرهم ، قال تعالى :" وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون"[2] قال بعض السلف :"كان لنا أمانان من العذاب وهما وجود النبي-ﷺ-والاستغفار فلما مات النبي ذهب الأمان الواحد وبقى الآخر"[3] وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أن أبا جهل قال :"اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فنزلت " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم" ...الآية[4].

فوجوده ﷺ كان أمانا لهم من العذاب ، ورحمة لهم من غضب الله وعقابه ، قال الإمام القشيري-رحمه الله-:"ما كان الله معذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله ليعذب أسلافهم وأنت فى أصلابهم ، وليس يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم إجلالا لقدرك وإكراما لمحلك ، وإذا خرجت من بينهم فلا يعذبهم وفيهم خدمك الذين يستغفرون ، فالآية تدل على تشريف قدر الرسول ﷺ"[5].

السبب الثاني: أن الله-ﷻ-قد سبق فى علمه أن فيهم من يدخل فى الإسلام ويصير له دور فعال فى نشر الدعوة الإسلامية العظيمة .. فهو-ﷻ-علام الغيوب وهو أعلم بالمصلحة ، ويدل على ذلك نهى الله نبيه-ﷺ-عن الدعاء عليهم ، فقال :"ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون"[6].

---

[1] سورة الأنبياء ، الآية: ١٠٧ .
[2] سورة الأنفال ، الآية: ٣٣ .
[3] التسهيل ٢/٦٥ .
[4] أخرجه البخاري فى صحيحه ، كتاب التفسير ، باب "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون" ٣/١٤٢٣ ، رقم الحديث (٤٦٤٩) ، عن أنس بن مالك.
[5] لطائف الإشارات ١/٦٢١ .
[6] سورة آل عمران ، الآية: ١٢٨

ولقد اختلف فى سبب نزول هذه الآية : فروى عن أنس بن مالك أن رسول الله-ﷺ-كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول : "كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله "؟، فأنزل الله ﷻ "ليس لك من الآمر شئ"[1].

فهذه الرواية تبين أن سبب النزول هو يأس النبي-ﷺ-من إيمانهم حينما أصابه ما أصابه فى غزوة أحد ، بينما روى فى الآية سبب آخر وهو "أن رسول الله-ﷺ-كان يدعو على صفوان بن أمية[2] ، وسهيل بن عمرو[3] ، والحارث بن هشام[4] ، فنزلت "ليس لك من الأمر شيئ ..." إلى قوله "فإنهم ظالمون"[5].

ومن هنا يتبين أن لسبب نزول الآية أمرين :

أولهما : غضبه-ﷺ-لما أصابه فى غزوة أحد ، فأراد أن يدعو عليهم ، فنهاه الله عن الدعاء ؛ لعله يخرج من أصلابهم من يؤمن .

ثانيهما : دعاؤه-ﷺ-على أشخاص بعينهم فنهاه الله عن ذلك ؛ لعلمه أنهم سيسلمون .

وقد جمع الإمام ابن حجر بين الروايتين فقال:"والجمع بين الحديثين أنه دعا على المذكورين فى صلاته بعد ما وقع له من الأمر المذكور يوم أحد ، فنزلت الآية فى الأمرين معا فيما وقع له ،

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة أحد ٣/١٤١٧ .. كما أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب تفسير القرآن عن النبي ﷺ - باب ومن سورة آل عمران ٥/٢٢٦-٢٢٧ ، رقم الحديث (٣٠٠٢ ، ٣٠٠٣) ، وقال أبو عيسى ، هذا حديث حسن صحيح ، ط دار الحديث ، القاهرة ، تحقيق ، إبراهيم عطوة عوض .

(2) صفوان بن أمية بن خلف - قتل أبوه يوم بدر كافرا وأسلم هو بعد الفتح ، وكان من المؤلفة وشهد اليرموك روى عن النبي ﷺ وعنه أولاد أمية وعبد الله وآخرون ، وكان من أشرف قريش فى الجاهلية والإسلام ، مات أيام قتل عثمان سنة إحدى وأربعين . (انظر تهذيب التهذيب ٤/٣٧٢ ، والإصابة ٣/٤٣٢-٤٣٣) .

(3) سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، أسر يوم بدر وفدى ، وهو الذى تولى المصالحة على القضية التى كتبت بالحديبية وأقام على دينه إلى يوم الفتح ، وكان من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم ، وكان كثير البكاء رقيقا عند قراءة القرآن ، مات فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة ، رضي الله عنه . (انظر صفة الصفوة ، لـ أبى الفرج الجو زى المجلد الأول الجزء الأول ٣٧١ وما بعدها ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ضبطها وكتب هوامشها / إبراهيم رمضان ، سعيد اللحام ، وانظر ترجمته فى الإصابة ٣/٢١٢ وما بعدها) .

(4) الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله ، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وخرج إلى الشام مجاهدا ، وحبس نفسه فى الجهاد ولم يزل بالشام إلى أن قتل باليرموك ، ويقال أنه مات فى طاعون عمواس ، روى عن النبي ﷺ ، وروى عنه ابنه عبد الرحمن بن الحارث . (انظر ترجمته فى تهذيب الكمال ٥/٢٩٤-٢٩٥ ، والإصابة ١/٦٠٥وما بعدها) .

(5) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ، باب "ليس لك من الأمر شئ" .. الآية: ٣/١٢٤١ ، عن سالم بن عبد الله عن أبيه .. كما أخرجه بنحوه فى كتاب التفسير ، باب "ليس لك من الأمر شئ" ٣/١٣٨٣ ، رقم الحديث (٤٥٥٩) ورقم (٤٥٦٠) .

وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم .. قال : ولكن يشكل على ذلك ما وقع فى مسلم من حديث أبى هريرة–رضي الله عنه–أنه–ﷺ–كان يقول فى الفجر : "اللهم العن رعلا وذكوان وعصية"[١]حتى أنزل الله "ليس لك من الأمر شئ"[٢].

ووجه الإشكال أن الآية نزلت فى قصة أحد وقصة رعل وذكوان بعدها ، ثم ظهرت لي علة الخير وأن فيه إدراجا ، فإن قوله حتى أنزل الله منقطع من رواية الزهري عمن بلغه ..بين ذلك مسلم .. وهذا البلاغ لا يصح فيما ذكرته ، قال: ويحتمل أن يقال أن قصتهم كانت عقب ذلك ، وتأخر نزول الآية عن سببها قليلا ، ثم نزلت فى جميع ذلك"[٣].

قال الإمام السعدي–رحمه الله فى تفسير الآية :"بين الله–ﷻ–بهذه الآية أن الأمر كله لله ، وأن الرسول–ﷺ–ليس له من الأمر شئ ؛ لأنه عبد من عبيد الله ، والجميع تحت عبودية ربهم مدبرون لا مدبرون ، وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم إن شاء الله تاب عليهم ووفقهم للدخول فى الإسلام ، وقد فعل ، فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا"[٤].

فالأمر كله بيد الله فهو الرحيم بعباده فإذا شاء عجل لهم العقاب ، وإذا شاء أمهلهم للتوبة ، قال الإمام الطبري–رحمه الله–فى تفسير الآية :"ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري وتنتهي فيهم إلى طاعتي ، وإنما أمرهم إلى ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري ، أقضى فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري ، أو العذاب إما عاجل فى الدنيا بالقتل ، وإما فى آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي"[٥].

ولقد أسلم ناس بعد هذه الغزوة كان لهم دور فعال فى نشر الدين الإسلامى الحنيف ، وكان لهم عظيم الفضل فى الفتوحات الإسلامية ، ومن أبرز هؤلاء :

---

[١] كان ذلك فى حادث بئر معونة ، وقصته أن أبا براء عامر بن مالك ، ملاعب الأسنة طلب من النبي ﷺ أن يبعث معه رجلا من أصحابه إلى أهل نجد ، وضمن له سلامتهم ، فبعد أن أرسلهم غدرت بهم قبائل من بنى سليم من عصية ، ورعل ، وذكوان ، فقتلوهم فكان النبي ﷺ يدعو عليهم فى قنوته . (انظر قصتهم فى الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام للفقيه المحدث أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخسعمى السهيلى ٢٣١/٣ ، قدم له وعلق عليه ، طه عبد الرءوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مؤسسة مختار.

[٢] أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة مطولا ، باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة ٤٦٦/١ .

[٣] فتح الباري ٧٥/٨ بتصرف ، كتاب التفسير ، باب ليس لك من الأمر شئ ، دار الريان للتراث ، المكتبة السلفية.

[٤] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ١٤٦ .

[٥] جامع البيان ٨٦/٤ .

خالد بن الوليد : سيف الله تعالى ، وفارس الإسلام ، وليث المشاهد ، السيد الإمام الأمير الكبير ، قائد المجاهدين ، سماه النبي–ﷺ–"سيف الله" فقال : "إن خالدا سيف سله الله على المشركين "، لما حققه من نصر عظيم فى غزوة مؤتة بعدما قتل أمراء رسول الله–ﷺ–الثلاثة (مولاه زيد–ابن عمه جعفر–ابن رواحه) وبقى الجيش بلا أمير فتأمر خالد عليهم فى الحال وأخذ الراية وحمل على العدو فكان النصر .. ولقد احتبس خالد أدراعه ولامته فى سبيل الله ، وحارب أهل الردة ومسيلمة ، وغزا العراق ، واستظهر ثم اخترق البرية السماوية بحيث أنه قطع المفازة من حد العراق إلى أول الشام ولم يبق فى جسده قيد شبر إلا وعليه طابع الشهداء"[1].

فلو استجاب الله–ﷻ–لدعاء النبي–ﷺ–ومصطفاه لخسرت الأمة الإسلامية جهود هذا الرجل ، البطل المغوار ، والفارس المقدام ، الذى لم تشهد له الأمة الإسلامية نظير.

عمرو بن العاص : الذي كان رجلا بكل ما تحمله الكلمة من معان سامية وخصال كريمة ، فتح هذا الرجل كثيرا من الفتوحات الإسلامية ما كان على الخاطر أن تدخل هذه البلاد فى الدين الإسلامى الحنيف ، يقول عنه صاحب (الإصابة فى تمييز الصحابة) :"لما أسلم عمرو بن العاص كان النبي–ﷺ–يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته ، وولاه غزوة ذات السلاسل .. وكان من أمراء الأجناد فى الجهاد بالشام فى زمن عمر بن الخطاب ، عده الشعبي من دهاة العرب فى الإسلام حيث كان يضرب به المثل فى الدهاء والفطنة"[2] وغيرهما كثير ممن أسلموا فكان لهم باع فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

ومما يجب التنبيه عليه :

أن دعاء النبى–ﷺ–على قومه أو إرادته الدعاء لا يقدح فى حلمه–ﷺ–فما أصابه يوم أحد ليس بالقليل ، فلقد قتل فيها عدد كبير من صحابته الكرام ، ومثل بعمه حمزة–رضي الله عنه–وشجت رأسه–ﷺ–وكسرت رباعيته ، وانقلب نصرهم إلى هزيمة بعد عصيان الرماة له بترك مواقعهم ، وغير ذلك من المواقف التي فتر لها قلب النبي–ﷺ–حزنا وغيرة على الدين الإسلامى ، كما أن الله–ﷻ–

---

[1] انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاء ٣٦٦/١وما بعدها.
[2] الإصابة فى تمييز الصحابة ٦٥١/٤-٦٥٢ بتصرف .

هو الذي رباه وأدبه فأحسن تأديبه ، وكانت هذه واحدة من الفضائل التى أراد المولى-ﷻ-أن يعلمه إياها ، وأن يعلمه إلى أى مدى يمكن أن يصل إليه حلمه-ﷺ-وأنه ليس بشرا عاديا .. وخير دليل على ذلك أننا إذا ما نظرنا إلى مواقفه-ﷺ-مع قومه فسنجده حليما معهم[1] ، بل ويعلم صحابته الحلم ويسقيه لهم .

وبهذا تتجلى نعمة الإمهال على أمة محمد-ﷺ-وعلى الذين يعتبرون فيعودوا إلى خالقهم وبارئهم ؛ فيتوب عليهم ، كما تجلت تلك النعمة أيضا على مشركى الأمم السابقة من الذين اتعظوا وتابوا إلى الله فى فترة المهلة ، فهؤلاء-مثلا-قوم يونس-عليه السلام-أمهلهم الله فتابوا وتضرعوا إليه فعفا عنهم وغفر لهم . وفيهم نزل قوله-ﷻ-"فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين"[2].

فقد "روى أن يونس-عليه السلام-بعث إلى أهل نينوى[3] من الموصل فكذبوه وأصروا عليه ، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث وقيل إلى ثلاثين ، وقيل إلى أربعين ، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيما أسود ذا دخان شديد ، فهبط حتى غشى مدينتهم ، فهابوا ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا صدقه ، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ، ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدة وولدها ، فحن بعضها إلى بعض ، وعلت الأصوات ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان ، وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم"[4].

سبحانك ربى قد فاق حلمك عقول البشر ، وعيت عن إدراكه حدود البصر ، شمل حلمك المؤمن والكافر ، وتساوى فيه العابد والعاصى ، تمهل العاصى حتى يتوب ويعود ، فإن تاب وعاد قبلته ، وغفرت له ما كان منه ولا تبالي ، وإن أبى وتمادى لحقه سخطك وانصب عليه غضبك فكان من الخاسرين فى الدنيا والآخرة ،،،، فاللهم اجعلنا من التوابين المستغفرين إذا أذنبوا ، المتقبلين إذا عادوا ، ولا تجعلنا ممن يتمادون فى غيهم ، فتمهلهم ولا تهملهم .. اللهم آمين ..

---

[1] سبق الإشارة إلى حلمه ﷺ .
[2] سورة يونس ، الآية: ٩٨ .
[3] سبق الإشارة إلى هذه البلدة .
[4] تفسير البيضاوى ٣/٢١٥-٢١٦ .

البحث الثاني

الإمهال نقمة من الله على الكافرين

إن الله-ﷻ-قادر على أن يثأر من الكافر ، وينال منه جزاء ما قدمت يداه ؛ لكنه -ﷻ-يزيد له فى البغي حتى يتجاوز أعلاه ، فإذا أخذه-ﷻ-بعذابه لم يفلته ؛ مصداقا لقول المصطفى ﷺ :"إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .. ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد"[1].

وإذا ما نظرنا إلى أحوال الظالمين فى عصرنا الراهن فسينتابنا العجب من حلم الله ﷻ بهم وجرأتهم عليه ، فلقد فعل الكفرة من الأمريكان وغيرهم كافة أنواع الظلم والتخريب والتجرؤ على الله وعلى دينه الحنيف ، يحاولون تحريف القرآن[2] ويدبرون للإسلام وللمسلمين ليل نهار المكائد ، يحاولون جاهدين الإيقاع بهم ، وزحزحتهم عن دين الله .

نعم !! إن الجاهل حين يرى كل هذه الأشياء من الظالمين ليظن أن الله-ﷻ-غير قادر عليهم وعلى النيل منهم ، ولكنه-ﷻ-يمهلهم ولا يهملهم ، يقول-ﷻ-مخاطبا نبيه ومصطفاه :"ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض"[3].

قال الإمام السعدى فى تفسير الآية :"الله-ﷻ-قادر على كل شئ ، قادر على ألا ينتصر الكفار فى موضع واحد أبدا حتى يبيد المسلمون خضراءهم ؛ "ولكن ليبلو بعضكم ببعض" .. ليقوم سوق الجهاد ؛ وتتبين بذلك أحوال العباد ، الصادق من الكاذب ؛ وليؤمن من آمن إيمانا صحيحا عن تبصرة ، لا إيمانا مبنيا على متابعة أهل الغلبة ، فإنه إيمان ضعيف جدا لا يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا"[4] .

---

[1] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، واللفظ له ، كتاب التفسير ، باب "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد" .. ١٤٤٢/٣ ، رقم الحديث (٤٦٨٦) ، عن أبى موسى الأشعري.كما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ ، رقم الحديث (٢٥٨٣) ، عن الراوي نفسه .

[2] كما ظهر فى زماننا هذا من محاولة تحريف القرآن وحذف آيات منه وسور ، هذا الكتاب الذى يسمى عندهم "العهد الجديد" .

[3] سورة محمد ، من الآية: ٤ .

[4] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ٧٨٥ بتصرف .

ولا يزال شياطين الإنس والجن يجولون في نفوس المؤمنين من عباد الله سبحانه ، عندما تحاصرهم المصائب ، أو يهددهم عدو من الأعداء المتكبرين على الله-ﷻ-يوسوس أحدهم إلى أفئدة المسلمين ونفوسهم ، أين هو النصر الذى وعدكم الله-ﷻ-؟ ... أين هي الحماية التي أكدها لكم الله-ﷻ-في آيات كثيرة متواليات فى محكم تنزيله ؟ .. وما تزال تلك وسوستهم يكررونها أملا فى أن يرتدوا بهم من الإيمان بالله-ﷻ-إلى الكفر والإلحاد -والعياذ بالله- وإذا ما تتبعنا أحوال الظالمين نجد -مع شديد الأسف- أن تعاقب الأيام وتتابع الأعوام وإمهال الله لهم لا يزيدهم إلا عنادا وكفرا وبعدا عن الله-ﷻ-ناسين أن الله يمهل ولا يهمل ، غرهم طول الإمهال ، وخدعهم التسويف والأمل.

إننا لو تدبرنا آيات القرآن الكريم محاولين إحصاء ما فيه من معانى الإمهال ، وأخذ الظالمين والحديث عن مصيرهم ، لضاق بنا المقام ؛ لأن القرآن الكريم قد أفاض في هذه الناحية ، متحدثا عن مآلهم ومصيرهم ، وأنه -ﷻ- ليس غافلا عنهم .

وسوف يكون المنهج فى هذا المبحث سرد بعض آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن إمهال الله للظالمين ، وكيف كان هذا الإمهال نقمة عليهم لا نعمة ، ثم يتناول البحث بعد ذلك شرح بعض الآيات حتى تتجلى الصورة للقارئ ، مع عرض نماذج لبعض الظالمين وكيف أمهلهم الله ، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ومن الآيات التي تحدثت عن إمهال الله للكافرين وكيف كان ذلك نقمة عليهم لا نعمة...

- قوله تعالى :"الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون"[1].
- وقوله :"ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير"[2].
- وقوله : "ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين"[3].

---

[1] سورة البقرة ، الآية: ١٥ .
[2] سورة البقرة ، من الآية: ١٢٦ .
[3] سورة آل عمران ، الآية: ١٧٨ .

- وقوله :"لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد {} متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد"[١].
- وقوله : "فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون"[٢].
- وقوله : "وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولـئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون"[٣].
- وقوله :"الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هـذا وما كانوا بآياتنا يجحدون"[٤].
- وقوله :"والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون {} وأملي لهم إن كيدي متين"[٥].
- وقوله : "من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون"[٦] ..
- وقوله : "ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون"[٧] ..
- وقوله: "فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون"[٨].
- وقوله:"كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولـئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون"[٩].

---

(١) سورة ال عمران ، الآيتان ١٩٦-١٩٧ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية: ٤٤ .
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٠ .
(٤) سورة الأعراف ، من الآية: ٥١ .
(٥) سورة الأعراف، الآيتان ١٨٢-١٨٣ .
(٦) سورة الأعراف ، الآية: ١٨٦ .
(٧) سورة الأنفال ، الآية: ٥٩ .
(٨) سورة التوبة ، الآية: ٥٥ .
(٩) سورة التوبة، الآية: ٦٩ .

- وقوله : "فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون"[١].
- وقوله :" ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب"[٢].
- وقوله : "ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار"[٣].
- وقوله :"فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام"[٤].
- وقوله : "ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون"[٥].
- وقوله : "ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون"[٦].
- وقوله : " قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا"[٧].
- وقوله : " فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا"[٨].
- وقوله : "بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون"[٩].
- وقوله : "وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير"[١٠].
- وقوله : "وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير"[١١].
- وقوله : "فذرهم في غمرتهم حتى حين {} أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين {} نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون"[١٢].

---

(١) سورة يونس ، من الآية: ١١ .
(٢) سورة الرعد ، الآية: ٣٢ .
(٣) سورة إبراهيم ، الآية: ٤٢ .
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤٧ .
(٥) سورة الحجر ، الآية: ٣ .
(٦) سورة النحل ، الآية: ٥٥ .
(٧) سورة مريم ، من الآية: ٧٥ .
(٨) سورة مريم ، الآية: ٨٤ .
(٩) سورة الأنبياء ، الآية: ٤٤ .
(١٠) سورة الحج ، الآية: ٤٤ .
(١١) سورة الحج، الآية: ٤٨ .
(١٢) سورة المؤمنون ، الآيات : ٥٦:٥٤ .

- وقوله : "وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا"[1].
- وقوله : "إنهم يكيدون كيدا {} وأكيد كيدا {} فمهل الكافرين أمهلهم رويدا "[2].

وإذا ما أرجعنا البصر فى هذه الآيات كرات ، يتبين لنا أن هذه الآيات تدور حول معنى واحد ، ومفهوم واحد ، و هو أن الله-ﷻ-قد أمهل الظالمين من أقوام عدة حتى إذا لم يتوبوا فاجأهم الله-ﷻ-بوابل عذابه ، وعظيم سخطه ؛ وسوف يتعرض البحث لشرح بعض هذه الآيات التي توضح إمهال الله للظالمين ، وكيف كان ذلك نقمة عليهم لا نعمة. *** قال تعالى :" ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين"[3].

أى لا يحسبن هؤلاء الكفار أن إمهالنا لهم وإطالة أعمارهم خير لأنفسهم ؛ لأنهم لا يستغلون طول أعمارهم فى عمل الخير ، وإنما يستغلونه فى الشر والتمادي في البغي والطغيان ، فتكون عاقبتهم ازدياد الإثم على الإثم .

قال الإمام السعدي-رحمه الله-:"لا يظن الذين كفروا بربهم ، ونابذوا دينه ، وحاربوا رسوله ، أن تركنا إياهم فى هذه الدنيا ، وعدم استئصالنا لهم ، وإملائنا لهم ، خير لأنفسهم ، ومحبة منا لهم ، كلا ليس الأمر كما زعموا ، وإنما ذلك لشر يريده الله بهم ، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم ، ولهذا قال :"إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين" .. فالله تعالى يملى للظالم حتى يزداد طغيانه ، ويترادف كفرانه ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فليحذر الظالمون من الإمهال ولا يظنوا أن يفوتوا من الكبير المتعال"[4].

---

[1] سورة المزمل ، الآية: ١١ .
[2] سورة الطارق ، الآيات : ١٥ : ١٧ .
[3] سورة آل عمران ، الآية: ١٧٨ .
[4] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ١٥٨ .

روى عن رسول الله-ﷺ-قال :"والذي لا إله غيره ما على الأرض نفس إلا الموت خير لها إن كان مؤمنا ، فإن الله يقول : "لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار" .. وإن كان فاجرا فإن الله يقول : "إنما نملى لهم ليزدادوا إثما"[1].

فإن الفاجر الكافر كلما زيد فى عمره زيد فى آثامه وذنوبه مما يزيد عقوبته وحسابه عند الله ، لذلك كان الموت خيرا له من المعيشة ،" فإطالة أعمارهم لا تكون خيرا إلا إذا ازدادوا فيه عملا صالحا ينتفعون به فى أنفسهم بتزكيتها وتطهيرها من شوائب الأردان وسيئ الأخلاق ، وينتفع به الناس فى تهذيبهم وتحسين معايشهم ، ولكن هؤلاء لا يزدادون بجهلهم وسوء اختيارهم إلا إثما يضرهم فى أنفسهم بالتمادي في مكابرة الحق ، وتأييد سلطان الشر فى الخلق"[2] قال الإمام الزمخشرى -رحمه الله-:" فإن قلت كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضا لله تعالى فى إملائه لهم؟ قلت : هو علة للإملاء ، وما كل علة بغرض ، فلو قلت قعدت عن الغزو للعجز والفاقة ، وخرجت من البلد لمخافة الشر ، ليس شئ منها بغرض لك ، وإنما هي علل وأسباب ، فلذلك ازدياد الإثم جعل علة للإمهال وسببا فيه ، فإن قلت : كيف يكون ازدياد الإثم علة للإملاء ، كما كان العجز علة للقعود عن الحرب .. قلت : لما كان فى علم الله المحيط بكل شئ أنهم مزدادون إثما ، فكأن الإملاء وقع من أجله وبسببه ، على طريق المجاز"[3].

فإمهال الله للكافرين ليس المقصود به ازدياد الإثم ، وإنما ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان ، فيكون الإملاء خيرا لهم ، ولكن لما علم الله سابقا أن بعضهم لن يعود إلى دائرة الحق والخير والرشاد ، لذلك أمهلهم الله ليزدادوا إثما ؛ وبهذا يستحقون ما أعد لهم من عذاب مهين فى الآخرة .

والخلاصة: "أن هذا الإمهال والتأخير ليس عناية من الله لهم ، وإنما هو قد جرى على سنته فى الخلق ، بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فإنما هو ثمرة عمله ، ومن مقتضى هذه السنة

---

(1) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب التفسير ، باب تفسير آل عمران ،٢٩٨/٢ وقال الحاكم ، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .
(2) تفسير المراغى ١٤٠/٤-١٤١ .
(3) الكشاف ٤٧٢/١ .

أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره ، وسببا لاسترساله فى فجوره ، ونتيجة ذلك الإثم الذي يكسبه العذاب المهين"[١].

قوله تعالى مخاطبا رسوله والمؤمنين :" لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد {} متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد " .

فقد روى فى سبب نزول هذه الآية " أنها نزلت فى مشركى مكة ؛ وذلك أنهم كانوا فى رخاء ولين من العيش ، وكانوا يتجرون ويتنعمون ، فقال بعض المؤمنين : إن أعداء الله فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت هذه الآية"[٢].

قال الإمام أبو السعود : "الخطاب للنبي على أن المراد تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى: "**فلا تطع المكذبين**"[٣] أو على أن المراد نهى المؤمنين كما يوجه الخطاب إلى مداراة القوم ورؤسائهم ، والمراد أفناؤهم ، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب من المؤمنين"[٤].

والمعنى "لا يغرنكم أمنهم على أنفسهم وتصرفهم فى البلاد كيف شاءوا وأنتم –معاشر المؤمنين خائفون محصورون– فإن ذلك لا يبقى إلا مدة قليلة ثم ينتقلون إلى أشد العذاب"[٥] فنعيم الدنيا زائل فان ، أما نعيم الآخرة فهو الباقى الذي لا يزول ؛ ولذلك وصف الله متاع الدنيا بالقلة ، فقال :"متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد".

قال الإمام الرازي–رحمه الله–:"وصفه الله تعالى بالقلة ؛ لأن نعيم الدنيا مشوب بالآفات والحسرات ، ثم أنه بالعاقبة منقطع وينقضي ، وكيف لا يكون قليلا وقد كان معدوما من الأزل إلى

---

[١] تفسير المراغى ١٤١/٤ .
[٢] أسباب النزول للواحدى صـ ٩٨ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت .
[٣] سورة القلم ، الآية: ٨ .
[٤] إرشاد العقل السليم ١٣٥/٢ .
[٥] مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس ١٢٤/٩ ، وانظر تفسير المراغى ١٦٩/٤ .

الآن ، وسيصير معدوما من الأزل إلى الأبد"[١] وقد روى عن رسول الله -ﷺ- أنه قال :"ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع"[٢].

"فالآية إذن قصد بها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا ، وتنعمهم فيها ، وتقلبهم فى البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات وأنواع العز والغلبة فى بعض الأوقات[٣] فإن هذا كله ليس له ثبات ولا بقاء ، بل يتنعمون به قليلا ، ويعذبون عليه طويلا"[٤].

قوله تعالى :" فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون " .

فـ"في هذه الآية يخبر الله—ﷻ: أن هؤلاء القوم قد أخذهم الله أخذ ابتلاء واختبار بالبأساء والضراء ليكون مفيدا لهم ، قال تعالى :"**ولقد أرسلنآ إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون**"[٥] .. إذ الشدائد تربى النفوس ، وتهذب الأخلاق ، فترجع المغرورين عن غرورهم ، وتكف الفجار عن فجورهم ، ولكن كثيرا من الناس يصلون إلى حال من الشرك والفجور لا يغيرها بأس ولا يحولها بؤس ، فلا تجدي معهم العبر والمواعظ ، ولا تؤثر فيهم صروف الدهر وغيره .. ومن ثم قال تعالى :"فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولـكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون"[٦] .. فقلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة فلم تؤثر فيهم النذر ، وزين لهم الشيطان ما هم عليه من الشرك والفجور ، ووسوس إليهم بأن يثبتوا على ما كان عليه آباؤهم ، ولا ينقادوا إلى رجال منهم ضعاف الأحلام ، سفهاء العقول ، لا ميزة لهم عليهم بعقل راجح ، ولا فكر ثاقب"[٧].

---

[١] مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس ١٢٤/٩ .

[٢] أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢١٩/٤ ، رقم الحديث (٢٨٥٨) ، عن مستورد أخي بنى فهر .

[٣] كما انتصروا فى غزوة أحد .

[٤] انظر تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ١٦٢ بتصرف يسير .

[٥] سورة الأنعام ، الآية: ٤٢ .

[٦] سورة الأنعام، الآية: ٤٣ .

[٧] انظر تفسير المراغى ١٢٣/٧-١٢٤ بتصرف .

فلما نسوا هؤلاء ما ابتلاهم به ، وأعرضوا عما أنذرهم به رسلهم ، وتركوا الاهتداء به ، وأصروا على كفرهم وعنادهم ، فتح الله عليهم أبواب الرزق ، ورخاء العيش ، وصحة الجسم ، وأمن على الأنفس والأرواح ، إمهالا لهم واستدراجا . فما زادهم ذلك إلا بغيا وبطرا وكبرا . ومن ثم قال عز من قائل :"فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ ...."الآية ، قال الإمام الرازي–رحمه الله–:"عاملهم تعالى بتسليط المكارة والشدائد عليهم تارة فلم ينتفعوا به ، فنقلهم من تلك الحالة إلى ضدها ، وهو فتح أبواب الخيرات عليهم ، وتسهيل موجبات المسرات والسعادات لديهم فلم ينتفعوا به أيضا ، وهذا كما يفعله الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى طلبا لصلاحه ، حتى إذا فرحوا بما أتوا من الخير والنعم لم يزيدوا على الفرح والبطر من غير انتداب الشكر ، ولا إقدام على اعتذار وتوبة فلا جرم أخذناهم بغتة"[1].

وهكذا عاملهم المولى –ﷻ– بكافة الطرق أملا فى هدايتهم ؛ بالشدة تارة ، وباللين أخرى ، فلما لم يرعووا استدرجهم وفتح عليهم أبواب النعم ؛ كي يأخذوا حظهم من الدنيا ، وما لهم فى الآخرة من نصيب ، قال ﷺ :"إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله ﷺ : فلما نسوا ما ذكروا به .... الآية"[2].

قوله تعالى : " والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون {} وأملي لهم إن كيدي متين".

يخبرنا المولى ﷻ–في هذه الآية بأنه جل فى علاه يستدرج هؤلاء الكافرين إلى سوء عاقبتهم ، والاستدراج هنا : "إما مأخوذ من درجت الثوب والكتاب إذا طويته ، وإما من الدرج وهو المراقى الواخذة درجة"[3] ، فعلى الأول :" سنستدرجهم أي سنطويهم طي الكتاب ونغفل أمرهم كما قال :"ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا"[4] ، وعلى الثاني:سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من

---

[1] مفاتيح الغيب ، المجلد السادس ١٨٦/١٢ ، وانظر الكشاف ٢٣/٢-٢٤ .
[2] أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ، ١٤٥/٤ عن عقبة بن عامر .
[3] انظر المصباح المنير ١٩١/١ ، كتاب الدال .
[4] سورة الكهف ، من الآية: ٢٨ .

العذاب شيئا فشيئا كالمراقى والمنازل فى ارتقائها ونزولها"[1] وهذا المعنى هو الأقرب لسياق الآيات.

قال الإمام الرازي-رحمه الله-:"المعنى سنقربهم إلى ما يهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم ؛ وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم بابا من أبواب النعمة والخير فى الدنيا فيزدادون بطرا وانهماكا فى الفساد ، وتماديا فى الغي ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم"[2].

ويقول الأستاذ/ مصطفى المراغى :"وقد صدق الله وعده ، فقد كان كفار قريش وصناديدها يبالغون فى عداوة النبي -ﷺ- اغترارا بثروتهم وكثرتهم ، لا يعتدون به ولا بغيره ممن آمن به أولا وأكثرهم من الضعفاء الفقراء ، فما زالوا يتدرجون فى عداوتهم له وقتالهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم فى غزوة بدر فلم يعتبروا ، ثم زادهم غرورا تغلبهم عليه آخر معركة أحد ، إلى أن كان الفتح الأعظم-فتح مكة-فأظهر الله رسوله -ﷺ- ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سنته تعالى"[3] أما الظالمون فى عصرنا الراهن فيعيشون مرحلة الاغترار ، يفعلون بالمسلمين فى شتى بقاع الأرض ألوانا وألوانا من أساليب التنكيل والتعذيب والاستهزاء ، والمولى-ﷻ- يزيدهم نصرا إلى نصرهم ، وقوة إلى قوتهم ، حتى إذا أخذت دنياهم زخرفها وازينت ، وظنوا بل وتأكدوا أنهم قادرون عليها عندئذ سيحل عليهم عذاب الله وسخطه وسيعود للإسلام مجده الضائع وللمسلمين قوتهم وكرامتهم المفقودة.

يقول د/ وهبه الزحيلى :"إن الإمداد بالنعم والخيرات والأرزاق ليس دليلا على صلاح الإنسان ، وإنما قد يكون استدراجا كما يستدرج العدو إلى مكان للقضاء عليه ، فالظالم إذا لم يعاقب فورا ، عليه ألا ينخدع بذلك ، فقد يكون تركه طعما للتعرف على المزيد من بغيه وجوره ، كما تفعل أجهزة الأمن اليوم فى كثير من حالات مراقبة تحركات المشبوهين ، ثم يقع ذلك الظالم فى قبضة

---

[1] تفسير المراغى ٩/١٢٠ .
[2] مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ١٥/٦٠-٦١ .
[3] تفسير المراغى ٩/١٢٢ .

الحكام لعقابه فى الدنيا ، أو تنزل به المصائب والدواهي ، ثم يعاقبه الله بالعذاب الشديد فى الآخرة"[١] .

قوله تعالى:" فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون".

يخبرنا المولى-ﷻ-في هذه الآية أن كثرة أموال المنافقين وأولادهم إنما ذلك وبال عليهم فى الدنيا والآخرة ، فلم يجعلها لهم لذة لأنفسهم وإنما جعلها غما وحزنا عليهم ، يقول الإمام الرازي موضحا حسن ترتيب الآيات وعلاقة هذه الآية بما قبلها :"من تأمل هذه الآيات[٢] عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه ، فإنه تعالى لما بين قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم بين مآلهم فى الآخرة من العذاب الشديد ومآلهم فى الدنيا من وجوه المحنة والبلية ، ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينتفعون به يوم القيامة البتة[٣] ، ثم بين فى هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا فهو فى الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم ، وعند هذا يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات فى الدين والدنيا ومبطل لجميع الخيرات فيهما ، وإذا وقف الإنسان على هذا الترتيب لعرف أنه لا يمكن ترتيب الكلام على وجه أحسن من هذا"[٤].

" فإن قيل أي تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها فى الحياة الدنيا؟ ، قيل : فى الآية تقديم وتأخير تقديره فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة .. وقيل ، التعذيب بالمصائب الواقعة فى المال والولد ، وقيل : يعذبهم بها فى الدنيا بأخذ

---

(١) التفسير المنير د/ وهبه الزحيلى ١٨٢/٩-١٨٣ .

(٢) وهى الآيات التي سبقت هذه الآية:" ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين {} إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون {} قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون {} قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون {} قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين {} وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون " فهي حديث عن المنافقين وقبائح أفعالهم.

(٣) يشير بذلك إلى قوله "قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين" .. سورة التوبة ، الآية:٥٣.

(٤)مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ٧٣/١٦-٧٤ بتصرف يسير .

الزكاة منها والنفقة فى سبيل الله ، وقيل : يعذبهم بالتعب فى جمعه والوجل فى حفظه والكره فى إنفاقه والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده"[١]

والقول القائل بأن تعذيبهم بأخذ الزكاة منهم والإنفاق فى سبيل الله هو الظاهر لسياق الآيات ، وذلك لأن ما قبل هذه الآية إنما هو حديث عن الإنفاق وكيف كانوا كارهين له متضررين فى إخراجه ، قال تعالى :" **ولا ينفقون إلا وهم كارهون**"[٢]. .. وهذا القول اختاره الإمام الطبري وعلل بأن ذلك هو الظاهر من التنزيل ، وصرف تأويله إلى ما دل عليه ظاهره أولى من صرفه إلى باطنه[٣] ولا مانع من أن يدخل فى ذلك أن يكون تعذيبهم بالمصائب الواقعة فى المال والولد ، بالتعب فى جمعه والوجل فى حفظه فكل هذا يصيبهم بالهم والحزن والحسرة ، أما القول الأول بأن فى الآية تقديم وتأخير ففيه بعد لما فيه من صرف الآية عن ظاهرها . والله تعالى أعلم .

"والإعجاب بالشيئ أن يسر به سرورا ، راضيا به ، متعجبا من حسنه ، قيل مع نوع من الافتخار ، واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ، والمعنى : لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد"[٤]، قال الإمام السعدي :"فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم لم يكن إليها نسبة ، فهى لما ألهتهم عن الله وذكره ، صارت وبالا عليهم حتى فى الدنيا ، ومن وبالها العظيم الخطر ؛ أن قلوبهم تتعلق بها ، وإرادتهم لا تتعداها ، فتكون منتهى مطلوبهم ، وغاية مرغوبهم ، ولا يبقى فى قلوبهم للآخرة نصيب"[٥] لذلك قال فى ختام الآية "وتزهق أنفسهم وهم كافرون" .." فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك الخروج لهم نقمة لا نعمة.

وأصل الزهوق الخروج بصعوبة "[٦]... قال ابن منظور :"زهقت نفسه تزهق زهوقا أى خرجت"[٧] " وهكذا فإن الأموال والأولاد قد تكون سببا للعذاب فى الآخرة ، أما الأموال فى الدنيا فهى عذاب على المنافقين فى كسبها وفى إنفاقها ، فكسبها يحتاج إلى عناء القلق والهم ، والتهديد

---

[١] تفسير البغوى ٢/٣٠٠-٣٠١ .
[٢] سورة التوبة ، من الآية: ٥٤ .
[٣] جامع البيان، ١٠/١٥٣.
[٤] فتح القدير ٢/٣٦٩-٣٧٠ ، وانظر تفسير النسفي(المسمى بـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفى) المجلد الأول ٥٠٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الأولى ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م ، ضبطه الشيخ زكريا عميرات ، والكشاف ٢/٢٦٧ .
[٥] تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ٣٤٠ .
[٦] إرشاد العقل السليم لـ أبى السعود٤/٧٤ ، وانظر تفسير البيضاوى ٣/١٥١ .
[٧] لسان العرب ٣/١٨٧٩ مادة زهق باب الزاي ، وانظر المصباح المنير ١/٢٥٨ ، كتاب الزاي ، مادة زهق.

بالضياع والخسارة ، وقد تؤدى إلى قسوة القلب والطغيان كما قال تعالى :"كلا إن الإنسان ليطغى {} أن رآه استغنى"[١] .. وإنفاقها يكون كراهة لا طواعية ، فيعذبون بما ينفقون ، وأما الأولاد فقد يموتون فى الجهاد فيعقب موتهم الحزن والغم والندم ، وقد يؤمنون فيحترق الآباء غيظا عليهم[٢]وأما في الآخرة فيعذبون عذابا شديدا حيث يموتون على الكفر الذي يحبط أعمالهم وهذا من قبيل الاستدراج لهم فيما هم فيه ، وتكون النتيجة أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين[٣].

قوله تعالى :" ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار".

فهذه الآية تتحدث عن حال الظالمين مع الله فى الدنيا وفى الآخرة فهو–جل فى علاه–يمهلهم ثم ينتقم منهم ، فهو –ﷻ–لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعتريه سهو ولا نسيان ولكنه الله العزيز المنتقم ، يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار .. كما تحمل هذه الآية فى طياتها" تسلية للمظلوم وتهديدا للظالم كما قال المفسرون"[٤] وقد أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن معاذ بن جبل قال : كان فى بنى إسرائيل رجل عقيم–لا يولد له–وكان يخرج فإذا رأى غلاما من غلمان بنى إسرائيل عليه حلى يخدعه حتى يدخله فيقتله ويلقيه فى مطمورة[٥]له، فبينما هو كذلك إذ لقى غلامين أخوين عليهما حلى لهما ، فأدخلهما فقتلهما وطرحهما فى مطمورة له ، وكانت له امرأة مسلمة تنهاه عن ذلك .. فتقول له : إني أحذرك النقمة من الله–ﷻ–.. فكان يقول : لو أن الله أخذني على شيئ أخذني يوم فعلت كذا وكذا .. فتقول : إن صاعك لم تمتلئ بعد ولو امتلأ صاعك أخذت .. فلما قتل الغلامين الأخوين خرج أبوهما فطلبهما فلم يجد أحدا يخبره عنهما ، فأتى نبيا من أنبياء بنى إسرائيل فذكر ذلك له ، فقال له النبي : هل كانت لهما لعبة يلعبان بها ؟ .. قال : نعم كان لهما

---

[١] سورة العلق ، الآيتان ٦–٧ .
[٢] مثل حنظلة بن أبى عامر .. غسيل الملائكة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول .. الذي شهد بدرا وكان من الله بمكان .
[٣] التفسير المنير ٢٥٢/١٠ بتصرف .
[٤] انظر تفسير النسفى المجلد الأول ٦٥٥ والكشاف ٥٢٨/٢ .
[٥] المطمورة ، حفرة تحفر تحت الأرض . (المصباح المنير ٣٧٨/٢ ، كتاب الطاء) .

جرو .. فأتى بالجرو فوضع النبي خاتمه بين عينيه ثم خلى سبيله .. فقال : أول دار يدخلها من بنى إسرائيل فيها ميتان .. فأقبل الجرو يتخلل الدور حتى دخل دارا ، فدخلوا خلفه فوجدوا الغلامين مقتولين مع غلام قد قتله ، وطرحهم فى المطمورة ، فانطلقوا به إلى النبي ، فأمر به أن يصلب .. فلما رفع على خشبته ، أتت امرأته ، فقالت : يا فلان قد كنت أحذرك هذا اليوم وأخبرك أن الله غير تاركك وأنت تقول لو أن الله أخذني على شئ أخذني يوم فعلت كذا وكذا ، فأخبرك أن صاعك لم تمتلئ بعد .. ألا وإن بهذا قد امتلأ صاعك"[1].

فلقد ظن هذا الشقي بجهله وحماقته أن الله-ﷻ-أهمله عندما لم يعاجله بالعقوبة ، ولكن المولى -ﷻ-أراد أن يمتلئ صاعه كي يزداد عقابه.

ومعنى قوله "تشخص فيه الأبصار" .." أي لا تغمض من هول ما ترى فى ذلك اليوم وقيل ترتفع وتزول عن أماكنها"[2]... وفى اللغة : شخص بصره فهو شاخص إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف ، وشخص من بلد إلى بلد أى ذهب[3]، والمعنى: كما قال الشيخ مصطفى المراغى:"يمهلهم ويمتعهم بكثير من لذات الحياة ولا يعجل عقوبتهم ، ليوم شديد الهول ، ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، وتبقى مفتوحة لا تطرف من الفزع والاضطراب"[4].

قوله تعالى :" بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون" .

في هذه الآية إخبار من الله-ﷻ-بأن هؤلاء الكفرة ما حملهم على ما هم عليه من ضلال وبغى واغترار إلا لأنهم متعوا فى حياتهم الدنيا ، ونعموا بها ، وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيئ ، وأنهم هم الأغلبون ، والحقيقة كما وضحتها هذه الآية أن طول الزمان ما زادهم إلا غفلة ، وإدرار النعم ما زادهم إلا عذابا ، أفلا يعتبرون هؤلاء بنصر الله لأوليائه على

---

(1) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ٤٦٢/٥ ، فصل فى محقرات الذنوب باب معالجة كل ذنب بالتوبة .
(2) تفسير البغوى ٣٩/٣ .
(3) مختار الصحاح صـ ١٤٠ ، باب الشين ، مادة شخص .
(4) تفسير المراغى ١٦٥/١٣ .

أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة ، والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين ، وفتح البلاد للمسلمين ، وتناقص رقعة بلاد أهل الشرك ؟!..

قال الإمام الزمخشرى فى تفسيره الآية :"ما كلأناهم[1]وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا ، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد ، وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة ، فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ، ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم ، وذلك طمع فارغ ، وأمد كاذب ، أفلا يرون أنا ننقص أرض الكفر ودار الحرب ، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها ، وإظهارهم على أهلها"[2].

والفائدة في قوله "نأتي الأرض ننقصها من أطرافها" .". تصوير ما كان يجريه على أيدي المسلمين وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها"[3].

لقد كتب الله-ﷻ-على نفسه نصرة الإسلام والمسلمين ، قال عز من قائل فى محكم تنزيله :" وكان حقا علينا نصر المؤمنين"[4].. إن لم يكن هذا النصر بأيدينا فسوف يستبدل الله بنا قوما غيرنا ثم لا يكونوا أمثالنا ، وفى هذه الآية الكريمة تأكيد واضح لهذا النصر المبين ، كما أن فيها دعوة صريحة للتأمل فى ماضي الإسلام والمسلمين ، كيف كان ؟ .. وكيف بلغت الحضارة الإسلامية أوجها فى زمن رسول الله -ﷺ- والخلفاء الراشدين ؟ .. تلك الحضارة التي اتسعت رقعتها ففتحت من بلاد الكفر بلادا ما كان فى الحسبان أن تدخل فى دين الله ، فوصلت إلى الصين وأسبانيا والبرتغال وتركيا وغيرها ، تلك البلاد التي اغتصبها منا الغرب المسيحى عنوة .. وستعود ! .. وسيعود هذا العصر مرة ثانية لا محالة .

وفى نظرة سريعة إلى تفسير تلك الآيات التي عرضناها وغيرها ، فإننا سنجد أن معنى الآيات ومغزاها واحد فكلها تدور حول إمهال الله للظالمين ، ذلك الإمهال الذي هو نقمة عليهم لتكثر

---

(1) يشير بذلك إلى قوله تعالى "قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ..." الأنبياء ، من الآية: ٤٢ .. أى قل من يحفظكم من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا أو نهارا .(انظر تفسير البغوى ٦٩/٦).

(2) الكشاف ١٢٠/٣ .

(3) الكشاف ١٢٠/٣ .

(4) سورة الروم ، من الآية: ٤٧ .

ذنوبهم ، الأمر الذي يؤدى حتما إلى زيادة عذابهم فى الآخرة ، وهذا هو المعنى الذي تدور حوله كل هذه الآيات .

ثم بعد هذا الهدى الرباني بقى لنا أن نعيش لحظات نتذكر فيها بعضا من أحوال الظالمين من أمم الأنبياء والمرسلين ، هذه الصور التي لا تزيد قارئها إلا خوفا من الله ومن عذابه ، راجين من ورائها أن يرتدع الظالم ويعود إلى رحاب ربه .

عاد[1]:أرسل الله-ﷻ-نبيه هودا-عليه السلام-إلى قوم استخلفهم فى الأرض ، ومكن لهم فيها ، وآتاهم من كل نعم الدنيا التي لا تعد ولا تحصى ، فما كان منهم إلا أن قابلوا تلك النعم بالبغي والفساد والضلال والتكبر على الله-ﷻ- فكلف الله نبيه ومصطفاه "هودا"-عليه السلام-إنذارهم وتحذيرهم من مغبة غيهم وضلالهم . والقرآن الكريم ملئ بالحديث عنهم وضرب المثل بهم ، قال تعالى :" وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـــه غيره أفلا تتقون {} قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين {} قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين {} أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين {} أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون"[2].

قال الإمام الرازي :"جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وذلك أن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وما يتصل بها من المنافع والمصالح"[3] فقد أنعم عليهم المولى-ﷻ-بنعم كثيرة ، فلقد استخلفهم فى الأرض من بعد قوم نوح وجعلهم ملوكا فيها ، كما زادهم فى الخلق وهو ما عبر عنه-ﷻ-قوله "وزادهم فى الخلق بسطة" ، يقول الإمام الزمخشرى فى معنى قوله "وزادكم فى الخلق بسطة" : "أي فيما خلق من أجرامكم ذهابا فى الطول والبدانة ، قيل : كان أقصرهم ستين ذراعا وأطولهم مائة ذراع"[4] ، ولكثرة تلك النعم التي أنعم بها المنعم عليهم ذكرهم سيدنا هود-عليه السلام-بتلك النعم والعمل بموجبها قائلا لهم : اذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، أى " اذكروا نعمه

---

(1) عاد بن عوص بن سام بن نوح ، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف ، وهى جبال الرمال وكانت باليمن بأرض مطلة على البحر وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذات الأعمدة الضخمة (انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١) .

(2) سورة الأعراف ، الآيات ٦٥ : ٦٩ .

(3) مفاتيح الغيب ، المجلد السابع ١٢٨/١٤ .

(4) الكشاف ١١١/٢ .

الواسعة وأياديه المتكررة (لعلكم) إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها تفوزون بالمطلوب وتنجون من المرهوب"[١].

ولكن الأمر كان على غير ذلك فما زادهم هذا النعيم إلا ظلما وطغيانا ، وما زادهم فضل الله إلا كفرا وبغيا ، قال عز من قائل:"**فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة** ..... الآية"[٢].

قال ابن كثير – رحمه الله – :"بغوا وعتوا وعصوا وقالوا من أشد منا قوة : أى منوا بشدة تركيبهم وقواهم ، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله"[٣] ولقد كان هذا الكفر والبغي والتكبر على الله داعيا لأن يتعجب نبي الله هود من قومه فطفق يسألهم مستنكرا أفعالهم ..... قال تعالى حاكيا استنكار نبي الله هود عليهم باتخاذهم بنيانا يعبثون بها :"أتبنون بكل ريع آية تعبثون" " والريع بالكسر الطريق ، وقيل : الجبل ، وقيل : المكان المرتفع"[٤].

قال الإمام أبو السعود فى تفسير الآية : "أي مكان مرتفع ، ومنه ريع الأرض لارتفاعها ، ومعنى قوله "آية تعبثون" .. قيل علما للمارة يعبثون ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فلا يحتاجون إليها ، وقيل المراد به بروج الحمام ، وقيل بنيانا يجتمعون إليه ليعبثوا بمن مر عليهم ، وقيل قصورا عالية يفتخرون بها"[٥].

كما أنكر عليهم اتخاذهم قصورا كأنهم مخلدون فى الحياة الدنيا فلا يموتون ولا يبعثون "وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون".. قال مجاهد:"مصانع: قصورا مشيدة وحصونا وبيوتا مخلدة"([٦]) ، ومعنى قوله "لعلكم تخلدون" .." أي تقيمون فيها أبدا وذلك ليس بحاصل لكم ، بل زائل عنكم كما زال عمن كان قبلكم"[٧].

---

[١] انظر تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ٢٩٤ .
[٢] سورة فصلت ، من الآية: ١٥ .
[٣] تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ٩٥/٤ .
[٤] المصباح المنير ٢٤٨/١ ، كتاب الراء .
[٥] انظر إرشاد العقل السليم لـ أبى السعود٢٥٦/٦-٢٥٧ بتصرف ، وانظر مفاتيح الغيب ، المجلد الثاني عشر ١٣٥/٢٤ .
[٦] تفسير مجاهد ، ٤٦٣/٢.
[٧] تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ٣٤٢/٣ .

كذلك أنكر عليهم بطشهم فى الأرض بغير رأفة ولا رحمة "وإذا بطشتم بطشتم جبارين" ، قال الإمام البيضاوي :" أي إذا بطشتم بسيف أو سوط بطشتم متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ونظر في العاقبة"(١).

تلك الأفعال المستنكرة التى أنكرها نبي الله هود–عليه السلام–على قومه إنما هي مظهر من مظاهر تكبرهم وعتوهم وعنادهم وافترائهم على الله ورسوله–ﷺ–يقول الإمام الشعراوى–رحمه الله–معقبا على تلك الصفات التي وصف نبي الله هود–عليه السلام–بها قومه: "فهؤلاء الناس كانت فيهم صفات ثلاث وردت فى قول الله تعالى:"أتبنون بكل ريع آية تعبثون {} وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون {} وإذا بطشتم بطشتم جبارين"(٢) .. كل هذه الصفات تخدم صفة واحدة هي الكبر والتعالي ، فهم يبنون فى العالي ، ويشيدون الحصون الضخمة كأنهم مخلدون فى الدنيا ، وإذا بطشوا بطشوا بعنف دون رحمة ، فهم يريدون أن يأخذوا صفات تقربهم من صفات الألوهية ؛ لأنه ليس أعلا من الحق ، كما أنهم يريدون أن يستديموا بهذه الصفات ؛ لأنهم يريدون علوا واستبقاء وخلودا ، ويبطشون متجبرين ؛ لأنهم يريدون التفرد على الغير ، وهذا مخالف لما يريده الحق–سبحانه–من عباده"(٣).

وبعد هذا الإنكار من سيدنا هود–عليه السلام–على قومه يأمرهم أن يتقوا الله الذي أمدهم بكل هذه النعم وأن ينتهوا عن غيهم وضلالهم ، حيث قال فيما يحكيه عنه–ﷻ–:" فاتقوا الله وأطيعون {} واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون {} أمدكم بأنعام وبنين {} وجنات وعيون {} إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم"(٤).

ولكنها كانت صيحة فى واد ، لم يستجب قومه له ، ولم يصدقوه حيث حذرهم من قرب حلول العذاب ، ولقد أراد الله ألا يكون لهم حجة يحاجون بها عنده ، فما عاجلهم بالعقوبة الفورية ، بل بدأهم بمقدمات للعذاب لعلهم ينيبوا ويستغفروا ويتوبوا إلى الله ، ويرجعوا عن غيهم وضلالهم القديم ، " انقطعت عنهم الأمطار ، وجفت مياه الوديان والعيون ، وذبلت الزروع والمراعى ، وتساقطت الثمار ، وتكسرت أغصان الأشجار ، وجاعت الأنعام ، واشتكى الرعاة من قلة اللبن

(١) تفسير البيضاوى ٢٤٨/٤ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيات ١٢٨ : ١٣٠ .
(٣) قصص الأنبياء والمرسلين للإمام محمد متولي الشعراوى صـ ٧٦ ، المكتبة التوفيقية .
(٤) سورة الشعراء ، الآيات ١٣١ ، ١٣٥ .

وهزال الماشية والحيوان ... رأى هود-عليه السلام-كل ذلك ، وعرف أنه مقدمات العذاب فذهب إلى قومه يحذرهم ويخوفهم ويقول لهم : توبوا إلى ربكم ، وآمنوا به وحده ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويزدكم قوة إلى قوتكم"[1] ، قال تعالى على لسان نبيه هود :" ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين"[2].

قال الإمام الرازي-رحمه الله- :"إن الله تعالى لما بعث هودا-عليه السلام-إليهم كذبوه فحبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسائهم ، وقال لهم هود :إن آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ، ورزقكم المال والولد"[3] " ولكنهم أعرضوا من جديد وزاد عنادهم وقالوا ساخرين : أنت رجل محتال ، كنت تهددنا بالطوفان الذي أصاب قوم نوح . ولما رأيت هذا الجدب الذي أصاب بلادنا ، جئت تدعى أنه نذير العذاب ! .. ولكن لن يطول الجدب وسينتهى قريبا ، كما ينتهي كل جدب يصيب الأرض ! .. وبعد أيام أقبلت السحب من بعيد ، تسد جوانب السماء ، ففرحوا أشد فرح ورقصوا وغنوا وذبحوا القرابين لآلهتهم ، وظنوا أن أيام نحسهم قد انتهت ولن تعود ، وأسرعوا إلى هود يظهرون الشماتة به والسخرية منه ويقولون له : أرأيت ما كنت تخوفنا به من الجدب والهلاك ، لقد أقبل علينا السحاب يملأ الوديان ماء ، ويفجر الأرض عيونا ، ويزيد الخصب والخير .. وعندئذ نظر إليهم بيأس وقال : بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم .. وجمع هود أتباعه المؤمنين وخرج بهم من أرض عاد لينجيهم من الهلاك والعذاب ، وما هو إلا قليل ، حتى أقبلت العواصف الشديدة ، والرياح الباردة ، فأخذت تقلع الأشجار والخيام ، وتهدم البيوت ، وتقذف الحيوانات إلى مسافات بعيدة .. واستمرت سبع ليال وثمانية أيام حسوما (متصلة) ثم انجلت العاصفة وهدأت .. هدأت بعد أن أهلكت كل شئ ، وتركت القوم صرعى فى ديارهم كأنهم أعجاز نخل خاوية .. ولم يبق منهم صغير ولا كبير ، ولا ذكر ولا أنثى . وهكذا تنتهي حياة كل جبار ظالم سواء أكان فردا أم كان

---

[1] حجارة من سجيل وعاد وثمود لإبراهيم عزوز صـ ٣٩ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ١٩٨٨م .

[2] سورة هود ، الآية: ٥٢ .

[3] مفاتيح الغيب ، المجلد التاسع ١٠/١٨ .

جماعة ودولة !"[1] ، قال تعالى :" وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية {} سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية {} فهل ترى لهم من باقية"[2].

وهكذا انتهت حياتهم بهذه الريح التى دمرت كل شئ بأمر ربها ، فأصبحوا عبرة وعظة لكل جبار عتيد ! ..

ثمود[3] :أرسل الله-ﷻ-سيدنا صالح لقوم ثمود ، هؤلاء القوم الذين أعطاهم الله من نعمه الكثير والكثير ، ولكنهم لم يقابلوا تلك النعم بالشكر بالعبادة ، وإنما جحدوها واستكبروا فى الأرض بغير الحق ، قال عز من قائل : " وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هـذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم {} واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين"[4].

يقول الإمام الزمخشرى-رحمه الله- :"روى أن عادا لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم فى الأرض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى أن الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته ، فنحتوا البيوت من الجبال ، وكانوا فى سعة ورخاء من العيش ، فعتوا على الله وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان"[5].

وقال الإمام البغوى :"كانوا ينقبون فى الجبال البيت ففي الصيف يسكنون بيوت الطين ، وفى الشتاء بيوت الجبل"[6].

فهذه السعة والرفاهية ، وهذا الرخاء الذي كان يعيش فيه هؤلاء القوم جعلهم يعتقدون أنهم سيعمرون فى الأرض ، وجاء فى خلدهم أن يبحثوا عن وسائل تدوم لهم طول أعمارهم ،" فلقد

---

(1) حجارة من سجيل وعاد وثمود صـ ٤١-٤٢ .
(2) سورة الحاقة ، الآيات ٦ : ٨ .
(3) ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو حديس والقبيلة سميت بذلك لقلة مائها ، والثمد الماء القليـل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام ، وكانوا فى سعة من معايشهم ، فخالفوا أمر الله وعبـدوا غيـره ، وأفسدوا فى الأرض ، فبعث الله إليهم صالحا نبيا وكان من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا فدعاهم إلى الله وعبادته فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون . (راجع قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس للثعلبى صـ ٧٧ بتصرف .
(4) سورة الأعراف ، الآيتان ٧٣-٧٤ .
(5) الكشاف ١١٣/٢ .
(6) البغوى ١٧٤/٢ .

صعدوا إلى الجبال ، وراحوا ينحتون فيها قصورا خالدة ، وبيوتا أنيقة جميلة ، لتبقى لهم ولأبنائهم ، ما بقيت هذه الجبال قائمة وثابتة !"[1] ، كما جعلهم أيضا يتكبرون على خالقهم ويعبدون الأوثان من دونه ، ويفسدون في الأرض بغير حق ، ولكن الله-ﷻ-حليم بعباده فلم يعاجلهم بالعقوبة وهم مستحقون لها ، بل أمهلهم فبعث إليهم نبيهم صالح-عليه السلام-فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك ما دونه من أصنام لا تضر ولا تنفع ، ولكنهم أعرضوا عن دعوته ، ولم يستجيبوا له ، بل لقد زادوا في عتوهم وطغيانهم ، فطلبوا على استهزاء من سيدنا صالح آية وعلامة تدل على صدق نبوته ، وأن الله اختاره من بينهم ليكون لهم رسولا ! .. فاستجاب الله لطلبهم حتى لا يكون لهم حجة ، فإذا جحدوا بعدها أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وعاجلهم بالعذاب العاجل في الدنيا ، يقول-ﷻ-على لسان نبيه صالح:"هـذه ناقة[2] الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم"[3] ، وفي سورة هود :" ويا قوم هـذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب"[4] ، وفي سورة الشعراء :" قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم {} ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم"[5].

كانت تلك هي آية سيدنا صالح-عليه السلام-والتي جعلها الله رمز إمهالهم من عاجل عقابه ، فظلوا آمنين ما ظلت هذه الناقة آمنة ، فعاشت بينهم فترة من الزمن ، تأكل وترعى كما تشاء وتشرب وحدها في يومها المعلوم .." ولكن النفوس التي ألفت الظلم من قديم ، فأفسدها الغرور والكبر ، عز عليها أن تذلها هذه الناقة ، وأن تقاسمها أرزاقها في طعامها وشرابها"[6].

فتجرءوا على آية الله فعقروا الناقة وعتو عن أمر ربهم فاستحقوا بذلك العقاب السريع العاجل ، ولكن الله-ﷻ-لم ينزل بهم عذابه في لحظة عقرهم الناقة وتمردهم على آية الله ، بل لقد أمهلهم ثلاثة أيام ، يقول المولى-ﷻ-على لسان نبيه :" فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب"[7].

---

(1) حجارة من سجيل وعاد وثمود صـ ٤٦ .
(2) سبق الإشارة إلى هذه المعجزة وإلى قصة خروجها وقصة عقرها عند الحديث عن استعجال قوم صالح .
(3) سورة الأعراف ، من الآية: ٧٣ .
(4) سورة هود ، الآية: ٦٤ .
(5) سورة الشعراء ، الآيتان ١٥٥-١٥٦ .
(6) حجارة من سجيل وعاد وثمود صـ ٥٣-٥٤ .
(7) سورة هود ، الآية: ٦٥ .

كان هذا الإمهال يحمل فى طياته وعيدا لهم بالعذاب ، ورب سائل يسأل ما النكتة التي من أجلها أمهلهم الله ثلاثة أيام ولم يعاجلهم بالعذاب فى حينها ؟ .. يقول الإمام الشعراوى-رحمه الله :"يسأل بعض الناس إذا كان الحق-سبحانه وتعالى-قد قرر إهلاكهم ، فلماذا الإمهال ثلاثة أيام ؟ .. نقول : إن العذاب إذا جاء انقطع الألم الحسي ؛ لأن الإنسان يموت وعند موته ينقطع الألم ، والله تبارك وتعالى يريد أن يعيشوا ثلاثة أيام ليعانوا قرب تنفيذ الوعيد ، الذي قال الله-ﷻ-عنه :"وعد غير مكذوب"[1] وفى نهاية اليوم الثالث حانت لحظة العذاب ،" فلقد ارتجفت الأرض من تحتهم رجفة شديدة ، ودوت فى السماء فوقهم صيحة هائلة مريعة فسقطوا فى ديارهم جاثمين ، لا حس ولا حركة ، ودمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقابها ، ، وهكذا انتهى كل شئ فى حياتهم ، ولم يبق منهم إلا قصة تذكر كل جبار وطاغية بعاقبة الظلم والطغيان ! .."[2] قال تعالى :" فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز {} وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين {} كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود"[3].

قارون: يعد قارون صورة حية تمثل بصدق أروع المشاهد فى عقاب الظالمين وقد كررت هذه الصورة فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ، يحس قارئها لأسلوبها البليغ وتصويرها الرائع أنه يشاهدها صوتا وصورة ، هذا الظالم الذى بغى فى الأرض واستكبر فيها بغير الحق ، بل لقد أنكر فضل الله عليه ، وقال إنه جمع ماله بعلمه وذكائه ، وسوف نعيش فى هذه الوريقات الأحداث المهمة فى حياة هذا الظالم ؛ ليتعظ كل مسلم ؛ وليعلم كل مؤمن أن البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو عزيز ذو انتقام ، فقارون هذا الظالم الأحمق ، " قد أتاه الله بسطة فى العيش وسعة فى الرزق ، وكثرة فى الأموال ، فاجتمعت له أسباب السعادة ، وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلا القليل ، كان قارون ذا حظ عظيم ، وقد فاضت خزائنه بالأموال ، واكتظت صناديقه بها ، حتى ضاق الحفظة ذرعا بمفاتحها ، وأثقلهم حملها ، وناء العصبة أولو القوة بها ، وكان يعيش بين قومه عيشة البذخ والترف ، فكان يلبس الملابس الفاخرة ، ولا يخرج على قومه إلا فى زينته ، ويسكن القصور ، ويصطفى لنفسه الخدم ، ويستكثر من العبيد

---

[1] قصص الأنبياء والمرسلين للشيخ / محمد متولي الشعراوى صـ ٩٨ .
[2] حجارة من سجيل وعاد وثمود صـ ٥٥ .
[3] سورة هود ، الآيات ٦٦ : ٦٨ .

والحشم ، ويستمتع من الحياة بما يشبع نهمه ، ويروى ظمأه ، ويريد أن يصل إلى الغاية فى النعيم ، إن كان للنعيم غاية"[1] وقد تكفلت سورة القصص من بين سور القرآن بذكر قصة هذا الظالم الطاغى كاملة ، قال عز من قائل :

"إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين {} وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين {} قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون {} فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم {} وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون {}فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين {} وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون {} تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين"[2] .

لقد كان هذا الجبار من قوم موسى–عليه السلام–يوضح ذلك قوله تعالى "إن قارون كان من قوم موسى" ، يقول الإمام الرازي–رحمه الله :"اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى–عليه السلام–وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد آمن به .. إلا أنه نافق كما نافق السامرى"[3] ، فارتد بعدما آمن وبغى واستكبر فى الأرض بغير الحق (فبغى عليهم) ، يقول الإمام الزمخشرى: "من البغي وهو الظلم ، وقيل : ملكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم ، وقيل : من البغي وهو الكبر والبذخ ، فبذخ عليهم بكثرة ماله وولده ، وقيل : زاد عليهم فى الثياب شبرا"[4].

على أن القرآن لم يحدد نوع هذا البغي وما كان ذلك إلا لحكمة بالغة وهى أن الله–عز وجل–أراد بهذا الإبهام التعميم ليشمل أى نوع من أنواع البغي ، يقول الأستاذ/ محمد رجب:"الآية القرآنية لم

---

(1) قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى والسيد شحاتة صـ ١٦٨ ، الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٠هـ ١٩٨٤م ، مكتبة دار التراث ، ٢٢ شارع الجمهورية ، القاهرة .

(2) سورة القصص ، الآيات ٧٦ : ٨٣ .

(3) مفاتيح الغيب ، المجلد الثالث عشر ٢٥ صـ ١١-١٢ بتصرف .

(4) انظر الكشاف ٤٤/٣ .

تبين نوع هذا البغي ، وفيم بغى على قومه؟ ، وذلك ليكون البغي مجهولا بحيث يشمل شتى صور البغي"[١].

وتوضح الآية الكريمة أن الله قد أعطى هذا الباغي من نعمه الكثير والكثير وهو ما عبر عنه "إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة" ، أى مفاتيح خزائنه يصعب حملها على الرجال الأشداء الأغنياء ، والمفاتح هنا" إما أن تكون بمعنى مفاتح خزائنه وإما أن تكون الخزائن أنفسها"[٢] ، والعصبة من الرجال ما بين العشرة إلى الأربعين ، والعصابة بالكسر الجماعة من الناس"[٣].

هذا الجبار الطاغي الذي آتاه الله المال والملك لم تنفعه نصائح قومه له وإنما كفر وتكبر وزاد فى طغيانه قائلا : إنما أوتيته على علم عندي .يقول تعالى على لسان قومه :" إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين {} وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين" ..

فكان رد هذا الظالم كما صوره القرآن :" قال إنما أوتيته على علم عندي" يقول الإمام السعدي فى معنى هذا القول :"أى إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحذقي"[٤].

وهكذا حال كل ظالم مع الله-ﷻ-يعطيه الله المال ويبارك له فيه ، ويمهله حتى يتوب ويعود إلى ربه وخالقه ، ويرسل إليه من يحذره من عاقبة أمره حتى إذا أعرض يستدرجه-ﷻ-فيزيد له فى المال والجاه ، فيزداد بغيا وطغيانا ، وعندها يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، يقول الأستاذ/ محمد رجب :"وعلى هذا يكون إمهال الله لقارون قد انتهى ، لقد أمهله الله لعله يتذكر فأبى ، ونصح فلم يسمع النصح ، ووعظ فلم يتعظ ، فكان لابد من العقاب"[٥] ، يقول عز من قائل :" فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين {} وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون " .

---

(١) عبر من قصص القرآن الكريم بقلم ، محمد رجب صـ ١٦ ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م .
(٢) المفردات صـ ٣٧١ ، كتاب الفاء .
(٣) انظر مختار الصحاح صـ ٨٣ ، باب العين .
(٤) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى صـ ٦٢٤ .
(٥) عبر قصص القرآن الكريم محمد رجب صـ ٣٣ .

إنها لمعجزة بحق أبهرت قومه وأخافتهم ليعودوا إلى الله ، وليندم من كان يمشى على خطى قارون ويعود إلى بارئه ، يقول الشيخ/ محمد محمود ندا معقبا على هذا المشهد :"يا لله ، هكذا فى لمحة خاطفة انشقت الأرض لتبتلع قارون وتبتلع داره وخزائنه كلها ، وهوى كل ذلك فى بطن الأرض التي استعلى فيها وتطاول فوقها على عباد الله ، وذهب قارون غير مأسوف عليه ، ذهب عاجزا ضعيفا لا ينصره أحد ، ولو وجد من ينصره فلن ينتصر . ذهب وذهبت معه فتنته الطاغية بلا رجعة"[1].

وهكذا تنتهي حياة كل ظالم ، فبعد أن يمهله الله .. يفاجئه بعاجل عذابه ، ومع أننا نعرف أن العذاب والجزاء إنما يكون فى الآخرة ، فما السر من حلول العذاب فى الدنيا ؟ ..

نقول وبالله التوفيق : إن الله-ﷻ-قد أرانا صور العذاب فى الدنيا على الظالمين لتكون عبرة لأولى الألباب وصورة حية تنطق بقدرة الله لمن تحدثه نفسه فينكر عذاب الآخرة ، هذه الصورة تقول بملء فيها :"كذلك العذاب .. ولعذاب الآخرة أخزى لو كانوا يعلمون" ، كما أن هذه الصورة أيضا تطمئن أفئدة المظلومين وتطيب خاطرهم ، وتعلمهم علم اليقين أنه لن يفلت أحد من الظالمين من عذاب الله ، وأن العذاب آتيه لا محالة إن لم يكن فى الدنيا ففي الآخرة له العذاب الأليم.

وقد اكتفى البحث بذكر هذه النماذج من صور الظالمين ، والقرآن الكريم يذخر بالكثير والكثير وكلها صور تدور حول معنى واحد ، لا خلاف بينها إلا فى أبطال القصة وما عاجلهم الله به من عقاب ، فكلها توحي بقدرة الله وعظمته وقوته واقتداره على كل ظالم طاغ باغ .

والله تعالى أعلى وأعلم ؛

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[1] من القصص الحق بقلم الشيخ / محمد محمود ندا ، من علماء الأزهر الشريف صـ ٣٩٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٤٤م .

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات ، أحمده حمدا كثيرا مباركا فيه ، والصلاة والسلام علي أشرف خلق الله سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين ، وبعد.

وهكذا عشنا في رحاب موضوع قرآني من كتاب الله ﷻ وكم كنت سعيدة حتى وأنا أذوق ويلات ومشاق البحث ، تحدثت في هذا البحث عن الاستعجال والإمهال في ضوء القرآن الكريم فعرضت بادئ ذي بدء الأمور التي يستحب فيها التعجيل ثم تناولت بعد ذلك المواقف التي تعجل فيها الأنبياء ووضحت البواعث المحمودة عليها ، ثم عرجت علي المواقف التي تعجل فيها الصحابة وكيف كان التوجيه القرآني لهم ، ثم بعد ذلك انتقلت إلي الحديث عن نوع آخر من العجلة التي ذمها القرآن الكريم وهي الخاصة بالمشركين ، وكان بعد ذلك لابد من علاج قرآنى لهذه الغريزة الإنسانية ، فكان العلاج القرآني والنبوي لها ، وأخيرا افردت الإمهال بفصل تحدثت فيه عن حلم الله لعباده وكيف كان الإمهال نعمة؟ وكيف كان نقمة؟.

وقد توصلت إلي نتائج أود أن أذكرها وهي :

١- أن العجلة ليست مذمومة علي الإطلاق بل أن هناك نوع من العجلة ممدوح.

٢- أن تعجل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم كان دافعه حب الله والرغبة في إعلاء كلمته ؛ ولذا عد تعجلهم فعلا خلاف الاولى.

٣- أن تعجل الصحابة عليهم رضوان الله لا يقدح فيهم فحسبهم أنهم بشر وغير معصومين ؛ ولعلو مقامهم وما كان لهم من دور فعال في نشر الدين الإسلامي لم يرد الذم القرآني لهم بل ورد التوجيه والإرشاد.

٤- أن تعجل الكفار إنما كان علي سبيل الاستهزاء والخفة والطيش برسالات الله وبرسل الله لذلك ذمهم القرآن الكريم.

٥- أن الله سبحانه وتعالي إن كان وضع هذه الغريزة في النفس البشرية لم يتركها تستعبد الإنسان وإنما وضعها بحلولها التي لو التزم بها الإنسان لنجا منها.

٦- أن حلم الله وإمهاله لعباده لم يختص بالمؤمن دون الكافر ، فهو يمهل المؤمن العاصي حتي يتوب ويعود إليه ، فإن عاد قبله ، ويمهل الكافر فإن آمن غفر له وهذا من مقتضي رحمته.

٧- ألا يغتر البشر بحلم الله فالله عز وجل يمهل ولا يهمل.

وإن كان من الحق أن أنسب الفضل إلي أهله فإني أحمد الله أولا ثم أتقدم بخالص شكرى وإعزازي إلي **زوجي العزيز** الذي لم يبخل بأي جهد في سبيل إتمام هذا العمل الجليل ، فالله أدعوا أن يفقهه في الدين وأن يشرح صدره وأن يمن عليه وعلي وعلي المسلمين بالهداية والتوفيق والرشاد ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعواى أن الحمد لله رب العالمين

الباحثه